

الفصل التاسع

أعلام الكتاب

١

ابن المقفع^(١)

فارسي الأصل، اسمه روزبة بن داذويه، كان أبوه من قرية إيرانية تسمى جور، نزل البصرة، وظل على دينه مجوسياً مانوياً، غير أنه استعرب سريعاً، لاختلاطه بمواليه آل لأهتم التميميين، وهم يشتهرون باللسن والفصاحة والخطابة، ولم يلبث أن عمل في دواوين الخراج للحجاج، وظهرت عليه خيانة في أموال الدولة، فضربه الحجاج ضرباً مبرحاً نعت (بيست) منه يده، فسمى من حينئذ المقفع، ولم يسلم، بل مات على دينه، وعليه نشأ ابنه، ويظهر أنه عنى عناية شديدة بتأديبه، حتى أتقن اللغتين الفارسية والعربية، وقد مضى يتكسب بصناعة أبيه، فاشتغل، في دواوين العراق آخر زمن بني أمية، إذ كتب لعمر بن هبيرة إلى العراق لهشام بن عبد الملك، وكتب لابنه يزيد في ولايته العراق لمروان بن محمد، ولابنه الثاني داود في ولايته على كرمان بإيران وأفام منها أموالاً كثيرة. ولما قامت الدولة العباسية كتب لسليمان بن علي عم المصنور وواليه على البصرة، ولأخيه عيسى بن علي إلى الأهواز وعلى يديه أعلن إسلامه وتكنى بأبي محمد، ويقال إنه حين حاول اعتناق الإسلام طلب إليه عيسى أن يؤجل ذلك إلى الغد حتى يكون إعلان إسلامه في حفل عظيم، وحدث أن حضر طعام العشاء،

١ انظر في ترجمة ابن المقفع وأخباره الفهرست ص ١٧٢ والجحشيارى ص ١٠٣، ١٠٩ وفي مواضع متفرقة وأمالى المرتضى ١/ ١٣٤ وثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فنكل) ص ٤٢ و ٤٧ وزالباين والتبيين ١/ ١١٥ وفي مواضع متعددة (انظر الفهرس) والحيوان ١/ ٧٦، ٦/ ٣٣٠ ومروج الذهب للمسعودي ٤/ ٢٤٢ واعجاز القرآن للباقلاني ص ١٨ وزهر الآداب ١/ ١٨١ (طبعة الساسي) ١٨/ ٢٠٠ وغرر الخصاص الواضحة للوطواط (طبعة بولاق) ص ٤٠٨ وخزانة الأدب للبغدادية ٣/ ٤٩٥ وتحقيق ما للهند من مقولة (طبعة ليبزج) ص ٧٦ ومقدمة كليله ودمنة لعبد الومهاب عزام (طبع دار المعارف) وضحي الإسلام لأحمد أمين ١/ ١٩٥ ومن حديث الشعر والنثر لطله حسين (طبع دار المعارف) ص ٤٦.

فلاحظ عيسى أنه يأكل ويزمزم، أوة بعبارة أخرى يدعو بادعية المجوس، فسأله عيسى: أتصنع ذلك وأنت على نية الإسلام، فأجابه: كرهت أن أبيت على غير دين. وظل بعد إعلانه الإسلام يعمل في دواوينه.

واتفق أن خرج عبد الله بن علي عم المنصور وواليه على الشام، إذ أعلن ثورته عليه، غير أن جيوش المنصور هزمته، ففر إلى أخويه سليمان وعيسى، فطلبه المنصور منهما، فأبيا أن يسلماه إليه إلا إذا كتب له أماناً، فقبل ما عرضاه، وكلفهما كتابته، فأمر ابن المقفع أن يكتبه، فكتبه، وتشدد فيه تشدداً أغضب المنصور وأحفظه وملاه مودة، إذ طلب إليه أن يكتب في أسفل أمان هذا التوقيع^(١):

"وإن أنا نلت عبد الله بن علي أو واحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير، أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً سراً أو علانية، على الوجوه والأسباب كلها، تصريحاً أو كناية أو بحيلة من الحيل، فأنا نفى من محمد بن علي ابن عبد الله، ومولود لغير رده، وقد حل لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبراءة مني، ولا بيعه لي في رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي وإعانة من ناواني من جميع الخلق، ولا موالاة بيني وبين أحد من المسلمين. وهو متبرئ من الحول والقوة، ومدع إن كان، أنه كافر بجميع الديان، ولقي ربه على غير دين ولا شريعة، محرم المأكول والمشرب والمناكح والمركب والرف والملك والملبس على الوجوه والأسباب كلها. وكتبت بخطي، ولا نية لي سواه، ولا يقبل الله مني إلا إياه، والوفاء به".

واحتدم المنصور غيظاً حين قرأ هذا المان وسأل عن كاتبه، فقيل له ابن المقفع كاتب عيسى بن علي عمك، فقال: أما أحد يكفينيه؟ وأوعز إلى سفيان بن معاوية المهلبى عامله على البصرة حينئذ أن يقتله، وتصادف أن كان يضطغن عليه، فانتهاز فرصة قدومه إليه ذات مرة، وأمر بتنور، فملئ وقوداً حتى إذا حميت ناره أخذ يقطعه جزءاً جزءاً ويرمى بكل جزء في التنور حتى أتى عليه. ويقال إن المنصور إنما أمر بقتله لما ثبت عنده من زندقته وكيده للإسلام، ويبدو أن التعليل الأول لمقتله هو الصحيح، لما صعب في صيغة الأمان على المنصور تصعيباً امتنه فيه كرامته ووطئها بالأقدام، إذ طلب إليه أن يكتب بخط يده أنه إن غدر بغعمه أو باحد ممن معه فمساؤه طوالق وعبيده أحرار ودوابه محرمة عليه والمسلمون في حل من بيعته بل عليهم أن يحاروبه حتى يعطى عن يد وهو صاغر، وأيضاً فإنه إن فعل يكون كافراً خارجاً من جميع الأديان. فكان طبيعياً أن يثور المنصور لكرامته وأن يوعز إلى سفيان بقتله، ويقول

الجاحظ إن ابن المقفع أغرى عبد الله بن علي بالمنصور، ففطن له وقتل، وأغلب الظن أنه لا يريد بإغرائه لعبد الله بن علي سوى صيغة هذا المان المشؤوم، واختلف الرواة في السنة التي قتل فيها، ف قيل سنة ١٤٢ وقيل سنة ١٤٣ وقيل سنة ١٤٥ للهجرة.

وليس معنى استظهارنا أن يكون الأمان السالف هو اسبب الحقيقي في قتل ابن المقفع أننا ننفي عنه الزندقة، فقد شهد بها كثيرون من معاصريه ومن جاءوا بعده، وكان المهدي يقول: "ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع"^(١) ويقول المسعود: "أمعن المهدي في قتل الملحددين.. لما انتشر من الفارسية والفهلوية على العربية"^(٢) ويقال إنه مر بيت نار للمجوس بعد إسلامه، فلما رآه أحس بحنين شديد إلى دينه المانوي القديم، وأنشد بيتي الأحوص^(٣):

حذر العدا وبك الواد موكل

يا بيت عاتكة الذي أت عزل

قسماً إليك مع الصدود لأميل

إنى لأمنحك الصدود وإننى

وقد يكون في ذلك ما يشير إلى أنه ظل على اعتقاده المانوي القديم فهو يظهر الإسلام ويضمّر مانيوته، وقد مضى ينقل ديانات قومه المجوسية ومذاهب الملحددين مثل ابن ديسان ومرقيون، مما جعل العرب يتنبهون إلى غايته من هذا النق لومة ما كان يتصل به من ترجمة الحخكم الفارسية، فقالوا إنه إنما كان يريد على الأقل ببعض ترجماته وتصنيفاته معارضة الذكر الحكيم، وعرض لذلك الباقلاني فقال: "وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن، وإنما فزعوا إلى الدرة اليتيمة، وهى كتابان: أحدهما يتضمن حكماً منقولة.. والآخر في شئ من الديانات"^(٤) "وقد ألف القاسم بن إبراهيم بن طباطبا المتوفى سنة ٢٤٦ للهجرة كتاباً في نقض زندقته سماه "كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه لعنة الله". وذكر في أوائله أن ابن المقفع وضع كتابا ص عاب فيه المرسلين وافترى الكذب على رب العالمين^(٥)، ولذلك تصدى له يهدم مزاعمه هدماً. وشك أحمد أمين في هذا الكتاب الذي نسبته ابن

١ أمالى المرتضى ١/ ١٣٥

٢ روج الذهب ٤/ ٢٤٢

٣ أمالى المرتضى ١/ ١٣٥

٤ إعجاز القرآن (طبع مطبعة الإسلام) ص ١٨

٥ كتاب الرد على الزنديق اللعين (نشر جويدى) ص ٨

طباطبا إلى ابن المقفع ن ولا ينفى هذا الشك عنه زندقته فقد شهد بها معاصروه ومن تلاهم ممن قرءوا كتاباته، وكثير منها سقط من يد الزمن.

وكان - مع زندقته - نبي لخلق وقوراً يترفع عن الدنيا ولا يجعل للهوى سلطاناً على عقله، وكان يأخذ نفسه بكل ما يمكن من خصال المروءة والشعور بالكرامة، ويقول الجهمشياري إنه "كان سرياً سخياً يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه.. وكان يجرى على جماعات من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين الخمسمائة إلى الألفين في كل شهر". وتروى عنه حكايات مأثورة تدل على كرمه الفياض، كما تروى عنه أخبار تدل على دقة حسه، من ذلك أن عيسى بن علي دعاه يوماً للغداء فاعتذر بأنه مزكوم، والزكمة قبيحة الجوار، مانعة من عشرة الأحرار^(١). وكان يلفت معاصريه بأدبه الجم، فسأله سائل: من ادبك؟ فقال: نفسي! إذا رأيت من غيري حسناً أتيت، وإن رأيت قبيحاً أبيت. وكان يقدر الأخوة والصدقة حق قدرهما، وقد بني عليها كثيراً من حكمه ونصائحه في الأدبين: الصغير والكبير. وكان ذكياً ذكاء مفرطاً حتى قال ابن سلام: "سمعت مشايخنا يقولون: إن لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع"^(٢). وكان يرى أن الذكاء لا يعمر القلوب ولا يثمر الثمرة المرجوة بدون العلم، وإلا كان كالأرض الطيبة الخراب. ولعله لذلك دأب على التثقف بكل ما استطاع من الآداب الفارسية وما ترجم إلى لغته من الهندية وكذلك ما ترجم إليها من اليونانية زمن كسرى أنوشروان.

وبذلك كان ابن المقفع يجمع بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية والينانية، وقد نقل إلى العربية عن لغته خير ما عرف من الثقافات الأخيرة، وكان للثقافة الفارسية الحظ الأكبر، فقد نقل عنها كما مر بنا في غي هذا الموضع كتاباً في تعاليم مزدك وكتاب "خدای نامه" وهو في سير الملوك الإيرانيين، وعليه اعتمد افردوسی في نظم "الشاهنامه" وكذلك نقل كتاب التاج في سيرة أنوشروان. ونقل عنها في أنظمة الملك وتدبير السياسة والحكم كتاب "آیین نامه" ورسالة "تنسر" وفي عيون الأخبار منها وكتاب التاج نقول مختلفة. وكان في الفهلوية ادب أخلاقي كثير نما في بلاط الساسانيين، وكان يراد به إلى تثقيف الفرس بما يوضح لهم سبل الحياة العامة عن طريق الأمثال وما تشفع به من الحكم، ونقل من ذلك تابن المقفع مادة غزيرة في الأدب الصغير والأدب الكبير واليتممة

١ أمالي المرتضى ١/ ١٣٦

٢ مراتب النحو بين لأبي الطيب اللغوى (طبعة مكتبة نهضة مصر) ص ٢٨

ورسالة الصحابة. وعمد إلى خير أثر في لغته للهنود وهو كتاب كليله ودمنة فنقله إلى العربية، كما نقل عن لغته بعض ما ترجم إليها عن اليونانية من كتب أرسطو في المقولات والقياس المنطقي.

وما نقله عن أرسطو من لغته مفقود، ولم يصلنا ما نقله عن الفهلوية من الكتب الخمسة الأولى إلا ما اقتبسها ابن قتيبة مما يتصل ببعض وصايا الفرس السياسية وأنظمتهم في الملك والقضاء وفنون الحرب. ونحن نقف قليلاً عند الأدبين الصغير والكبير واليتيمة ورسالة الصحابة.

والأدب الصغير رسالة قصيرة^(١) في نحو ثلاثين صحيفة تتضمن طائفة من الوصايا الخلقية والاجتماعية التي ترشد الناس إلى صلاح معاشهم في أنفسهم وفي علاقاتهم بعناصر المجتمع من أهل السلطان ومن الأصدقاء ومن يغرهم، ونراغه يقول في أوائلها: "قد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً، فيها عون على عمارة القلوب وصقلها وتجليه أبصارها، وإحياء للتفكير، وإقامة للتدبير ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق" ومن قوله في تضاعيفها:

"على العاقل أن لا يستصغر شيئاً من الخطأ في الرأي والزلل في العلم والإغفال في الأمور. إن من استصغر الصغير أو شك أن يجمع إليه صغيراً وصغيراً، فإذا الصغير كبير، وإنما هي ثلم^(٢) يشملها العجو والتضييع، فإذا لم تسد أو شكت أن تنفجر بما لا يطاق. كلام اللبيب وإن كان نزرأ أدب عظيم، ومقارفة^(٣) المأثم وإن كان محتقراً مصيبة جلية. لا يمنعك صغر شأن أمرئ من اجتناء ما رأيت من رأيه صواباً، واصطفاء ما رأيت من أخلاقه كرياً، فإن اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذي استخرجها. أعدل السير أن تقيس الناس بنفسك، فلا تأتي إليهم إلا ما ترضى أن يؤتى إليك. حق على العاقل أن يتخذ مرأتين فينظر من إحداهما في مساوئ نفسه فيتصاغر بها، ويصلح ما استطاع منها، وينظر من الأخرى في محاسن الناس فيحكيهم بها ويأخذ ما استطاع منها. عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ هوى، والهوى آفة العفاف. من أشدي عيوب الإنسان خفاء عيوبه عليه فإنه من خفى عيبه عليه خفيت عليه محاسن غيره، ومن خفى عليه عيب نفسه ومحاسن غيره فلن يقلع عن عيبه الذي لا يعرف، ولن ينال محاسن غيره التي يبصرها أبداً. لا يتم حسن الكلام إلا بحسن العمل كالمريض الذي قد علم دواء نفسه، فإذا هو لم يتداو به لم يغنه علمه. والرجل ذو المروءة قد يكرم على غير مال

١ انظر الأدب الصغير في رسائل البلغاء لمحمد كرد علي (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١ وما بعدها.

٢ ثلم: جمع ثلمة وهي الخلل

٣ مقارفة: ارتكاب

كالأسد الذي يهاب وإن كان عقيراً^(١)، والرجل الذي لا مروءة له يهان وإن كثر ماله كالكلب الذي يهون على الناس وإن طوق وخلخل^(٢).

وأكثر وصايا الأدب الصغير على هذا النحو من القصر وقلم يطرد فيها السياق. أما الأدب^(٣) الكبير فرسالة أكثر طولاً إذ تمتد إلى نحو مائة صحيفة، موزعة بين موضوعين كبيرين، هما السلطان وما يتصل به من السياسة والحكم، والصدقة وما يتصل بها من صفات الصديق الصالح، ونراه يصرح في تقديمه لهذه الرسالة بما صرح به من أوائل الأدل الصغير من أنه يفيد في وصاياها من أقوال الأسلاف القدماء، إذ يقول: "منتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم وغاية إحسان محسننا أن يقتدى بسيرتهم، وأحسن ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر في كتبهم، فيكون كأنه إياهم يحاور ومنهم يستمع.. ولم نجدهم غادروا شيئاً يجد واصف بليغ^(٤) في صفة له مقالاً لم يسبقوه إليه". ويشير مع ذلك إلى أنه بقيت في وجوه الأدب وضروب الأخلاق أشياء من لطائف الأمور تشتقها الفطن السليمة من حكم الأولين وأقوالهم، وأنه سيضمن كتابه أو رسالته منها أطرافاً. ومعنى ذلك أن وصايا الرسالة إما نقل عن القدماء مما قرأه في الأدب الساساني السياسي والأخلاقي، وإما استنباطات وصل إليها عليهم، وهو يستهل رسالته بالحديث عن أصول الأدب ويريد به التهذيب الخلقي والاجتماعي والسياسي، ثم يورد بعض الوصايا لمن يتقلد شيئاً من أمور السلطان وينصحه فيما يتولاه أي رضى ربه ومن فوّه من اصحاب السلطان ومن تحته من صالحى الرعية، ويقول له: لا تلمس رضا الناس جميعاً، لأن ذلك شئ لا يدرك، إذ بينهم من رضاه الجور ومن رضاه الضلالة، فيكفيك رضا الأخيار منهم والعقلاء، ومن طريف ما يوصيه به قوله:

"لا تترك مباشرة جسم أمرك، فيعود شأنك صغيراً، ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير فيصير الكبير ضائعاً، واعلم أن رأيك لا يتسع لكل شئ ففر عنه للمهم.. وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن دأبت فيها، وأنه ليس إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدكم إلى نصيبه من الدعة فأحسن قسمتها^(٥) بين دعنك وعملك، واعلم أنك ما شغلت من رأيك في غير المهم أزرى بالمهم.. وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك في الحاجة. واعلم أن من الناس ناساً كثيراً يبلغ من

١ عقيراً: جريحاً

٢ خلخل: وضع في رجله خلخال

٣ انظره في رسائل البلغاء ص ٣٩ وما بعدها

٤ قسمتها: أى قسمة الليل والنهار

أحدهم الغضب إذا غضب أن يحمله ذلك على الكلوح^(١) والتقطيب في غير من أغضبه، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له، والعقوبة لمن لم يكن يهم بعقوبته، وشدة المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك. ثم يبلغ به الرضا إذا رضى أن يتبرع بالأمر ذى الخطر^(٢) لمن ليس بمنزلة ذلك عنده، ويعطى من لم يكن يريد إعطاءه ويكرم من لا حق له ولا مودة فاحذر هذا الباب الحذر كله".

ويسترسل ابن المقفع في مثل هذه الوصايا للوالى، ويتحدث عن صحبة السلطان وواجباتها وآدابها وكذلك صحبة الولاة والحكام، ثم ينتقل إلى الصديق والصدّاقة، ويصور الخلال التي ينبغي أن يتصف بها في رأي الصديق الحق حتى ليرى من واجب الصديق على الصديق أن يبذل له ماله ودمع وأن يلقاه بالتواضع والحياء وأن يمد له يد العون في الشدة. ويستطرد إلى الحديث عن جوار السوء وعشير السوء وجليس السوء، كما يستطرد إلى الحديث عن العدو وما ينبغي من استعمال الدهاء معه والعمل على القضاء عليه أو اجتنابه والبعد عنه، ويفيض في الأخلاق الحميدة والأخلاق السيئة التي تنفر الناس من صاحبها فضلاً عن الصديق، ومما يسوقه في الطرفين قوله:

"انظر من صاحبت من الناس من ذى فضل عليك بسلطان أو منزلة ومن دون ذلك من الخالص والأكفاء والإخوان فوطن نفسك في صحبته على أن تقبل منه العفو، وتسخو نفسك عما اعتاص عليك مما قبله غير معاتب ولا مستبطن ولا مستزید، فإن المعاتبة مقطعة للود، وإن الاستزادة من الجشع، وإن الرضا بالعفو والمسامحة في الخلق مقرب لك كل ما تتوق إليه نفسك مع بقاء العرض والمودة والمروءة.. ولا تلتمس غلبة صاحبك والظفر عليه بكل كلمة ورأى، ولا تجترئن على تقريره وتبكيته بظفرك إذا استبان وحجتك إذا وضحت. وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام، ومن حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يقضى حديثه، وقلة التلفت إلى الجواب، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم والوعى لما يقول.. واعلم أن المستشار ليس بكفيل وأن الرأى ليس بمضمون، بل الرأى كله غرر^(٣)، لأن أمور الدنيا ليس شئ منها بثقة، ولأنه ليس شئ من أمرها يدركه الحازم إلا وقد يدركه العاجز، بل ربما أعمى الحزمة^(٤) ما أمكن العجزة، فإذا أشار عليك صاحبك برأى فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل، فلا تجعل ذلك عليه لوماً وعدلاً بأن تقول: أنت فعلت هذا بى، وأنت أمرتني، ولولا أنت لم افعل، ولا

١ الكلوح والتقطيب: / العبوس

٢ الخطر: الشرف

٣ غرر: خداع

٤ الحزمة: جمع حازم

جرم لا أطيعك في شئ بعدها، فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة. وإن كنت أنت المشير، فعمل برأيك أو تركه فبدا صوابك فلا تمتن ولا تكمثرن ذكره إن كان فيه نجاح، ولاى تلمه عليه إن كان استبان في تركه ضرراً بأن تقول: ألم أقل، ألم أفعل، فإن هذا بجانب لأدب الحكماء.. واعلم أن من تنكب المور ما يسمى حذراً، ومنه ما يسمى خوراً فإن استطعت أن يكون تجنبك من الأمر قبل موافقتك إياه فافعل، فإن ذلك هو الحذر، ولا تنغمس فيه ثم تتهيبه، فإن ذلك هو الخور، وإن الحكيم لا يخوض نهراً، حتى يعلم مقدار قعره".

وردد محمد كرد على في نشرته للأدب الكبير بكتابه رسائل البلغاء بين هذا العنوان وعنوان ثان هو الدرة اليتيمة، وهما كتابان لاي كتاب واحد، كما يشهد بذلك كلام الباقلاني عن اليتيمة الذي سبق أن نقلناه عنه، وفيه أنها قسمان قسم في الحكم المنقولة، وقسم في شئ من الديانات، وليس في الأدب الكبير حديث عن الديانات، وإنما هو حديث كما رأينا من السلطان والصدقة. ومما يقطع بأن الدرة اليتيمة ليست هي الأدب الكبير أن ابن طيفور احتفظ في كتابه "اختيار المنظوم والمنثور" بقطعة طويلة من صدرها لا توجد في الأدب الكبير، ونرى ابن المقفع يذكر فيها أن الناس قد سألوه أسئلة، وأنه سيجيبهم عما سألوا، واحتفظت القطعة بالسؤال الأول، وهو يدور على الزمان، وقد أجابهم بأن الزمان الناس، وهم رجالان، وال ومولى عليه. وقسم الأزمنة على أساس الوالى والرعية أربعة أقسام: قسم هو خير الأزمنة لصالح الحاكم والمحكومين، وقسم ثان يليه وفيه يصلح الحاكم ويفسد المحكومون، وقسم ثالث يصلح فيه المحكومون ويفسد الحاكم، وقسم رابع هو شر الأزمنة لفساد الحاكم والمحكومين جميعاً، وفي الأول يقول^(١):

"خيار الأزمنة ما اجتمع فيه صلاح الراعى والرعية، فكان الإمام مؤدياً إلى الرعية حقهم: في الرد عنهم والغىظ على عدوهم، والجهاد من وراء بيضتهم^(٢) والاختيار لحكامهم، وتولية صلحائهم، والتوسعة عليهم في معاشهم، وإفاضة الأمن فيهم، والمتابعة في الحق لهم، والعدل في القسمة بينهم، والتقويم لأودهم^(٣) والأخذ لهم بحقوق الله عز وجل عليهم. وكانت الرعية مؤدية إلى الإمام حقه في المودة والمناصحة والمخالطة وترك المنازعة في أمره، والصبر عند مكروه طاعته، والمعونة على أنفسهم،

١ جمهرة رسائل العرب ٣/ ٤٩

٢ البيضة: حوزة كل شئ وساحة، القوم والمراد بلدهم

٣ الأود: الأعوجاج

والشدة على من أخل بحقه وخالف أمره، غير مؤثرين في ذلك آباءهم ولا أبناءهم، ولا لابسين^(١) عليه أحدا. فإذا اجتمع ذلك في الإمام والرعية تم صلاح الزمان، وبنعمة الله تتم الصالحات".

ويظهر أن الأسئلة الأولى في الرسالة كانت تحوّل في السياسة، وتلتها أسئلة كانت تخاص في شؤون الديانات، ولعل ذلك هو الذي جعل الدرة اليتيمة تسقط من يد الزمن، وكأن الناس تحاموا تداولها. أما رسالة الصحابة^(٢) فهي في صحابة السلطان وبطانته ومن يستعين بهم في حكمه من جنده وما ينبغي له في سياسته إزاء رعيته، كتب بها إلى المصور، وكأنه يضع له دستوراً للحكم، وقد استعملها بمدحه وبيان فضله على خلفاء بني أمية وما تحلى به من تشجيع ذوي النصيح والرأى على الإدلاء بنصائحهم وآرائهم فيما يعود على الأمة بالنفع والخير. ثم أخذ في تصوير الدستور الذي يريد من المصور اتباعه في حكمه، واصفاً حسن سياسته، إذ اقتلع الولاة والأعوان المفسدين، واجتمعت حوله قارب الرعية لما اشتمل عليه من حسن العفو واللين. ولم يلبث أن تحدث عن الجند، ومعروف أن الجند حينئذ كانوا خراسانيين في جمهورهم، ومن ثم أخذ يشيد بجند خراسان وأنه لم يدرك مثلهم في افسلام لما امتازوا به ن الطاعة والفضل والعفاف والكف عن الفساد والإعطاء عن يد للولاة والحكام، ومن أجل ذلك كانت تجب العناية بهم بوضع قانون لهم، يوضح في دقة واجباتهم وما ينبغي أن يفعلوه وما ينبغي أن يذروه ويبتجنوه، وأن مثلهم مثل الخليفة ينبغي أن يطيعوا الدين وأوامره ونواهيته، كما يطيعون الخليفة في الأحداث المتجددة من إعلان حرب أو مهادنة أو تنظيم أمور حادثة. ومما ينظر فيه لصلاح الجند أن لا يولى أحد منهم على شئ من الخراج فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة، إذ يخرجهم عن وظيفتهم الحربية، ويشغلهم بأمور المال والدراهم والدنانير. ولفت المنصور إلى أن من عليهم من هم خير من قادتهم. ولذلك ينبغي أن يعيد النظر فيمن جعلهم منهم قادة، فيرد بعضهم عن القيادة ويوليها الكفاء المجهول من الجند. وطلب إليه أن يعنى بتعليمهم القرآن والتفقه في السنة وأن يتحلوا باغلاً خلاق الفاضلة من الأمانة والعفاف والتواضع والبعد عن الهوى وأن يجتنبوا الترف في المطعم والملبس، كما طلب إليه تعيين مواقيت محددة لأرزاقهم ورواتبهم وأن يتقوا أحوالهم بثقات لا يكتمون عنه منها شيئاً. وانتقل ابن المقفع من الجند إلى أهل العراق عامة وأهل البصرة والكوفة خاصة، لأنهم شيعة العباسيين. وتحدث عن تفوق أهل العراق على غيرهم في الفقه والعفاف والعقول والفصاحة، وهم لذلك خير من يستعين بهم المنصور في دولته، وكان الأمويون قد حرموهم من تدبير

١ لابسين هنا: مقدمين، وأصل لسبس القوم التملى بهم زمناً

٢ انظر في هذه الرسالة رسائل البلغاء ص ١١٧ وجمهرة رسائل العرب ٣/ ٢٥

الحكم مع أنهم أهله ومستحقوه. وأوصاه- كما أوصاه في الجند- أن يتبع خيارهم من المجاهيل عنده، فيسند إليهم شئون الدولة، ويرد عنها من وقع فيهم الخطأ وزمن اختيروا دون تثبت وفحص كاف. وسرعان ما يعرض لفوضى القضاء الناشئة عن كثرة الاختلافات بين الفقهاء، حتى ليحكم في القضية الواحدة بحكمين مختلفين أو أحكم مختلفة لا في البلاد المتباعدة بل في البلد الواحد، واقتراح لدرء هذه الفوضى أن يضع المنصور قانوناً يلتزمه القضاة على اختلاف منازعهم الفقهية، سواء أكانوا ممن يقدمون الراي ويعتدون به أو كانوا ممن يقدمون السنة ويعتدون بها، ويسخر من الأخيرين، إذ تمادوا في الأخذ عن التابعين وخلفاء بني أمية مسمين ذلك سنة، مما دفع إلى هذا الاضطراب الواسع في الأقضية، يقول:

"ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين (البصرة والكوفة) وغيرهما من الأمصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها أمراً عظيماً في الدماء والفروج والأموال، فيستحل الدم والفرج بالحيرة، وهما يحرمان بالكوفة، ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة، فيستحل في ناحية ما يحرم في ناحية أخرى. غي أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمتهم، يقضى به قضاة جائز أمرهم وحكمهم، مع أنه ليس ممن ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لج بهم العجب مما في أيديهم والاستخفاف بمن سواهم، فأقحمهم ذلك في الأمور التي يتبغ^(١) بها من سمعها من ذوى اللباب. أما من يدعى لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس له سنة سنة، حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حجة على الأمر الذي يزعم أنه سنة، وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول: هريق^(٢) فيد دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أئمة الهدى من بعده، وإذا قيل له: أى دم سفك على هذه السنة التي تزعمون؟ قالوا: فعل ذلك عبد الملك ابن مروان أو أمير من بعض أولئك الأمراء. وربما يأخذ بالرأى، فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول في الأمر الجسم من أمر المسلمين قولاً، لا يوافقه عليه أحد من المسلمين، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وإمضائه الحكم عليه، وهو مقر بأنه رأى منه، لا يحتج بكتاب ولا سنة. فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسنن المختلفة فترفع إليه في كتاب، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس، ثم نظر في ذلك أمير المؤمنين وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله، ويعزم عليه عزماً، وينهى عن القضاء بخلافه، وكتب بذلك كتاباً جامعاً لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلفة

١ يتبغ: يهيج

٢ هريق: لغة في أريق

الصواب بالخطأ حكماً واحداً صواباً، ورجونا أن يكون اجتماع السنن قرينة لاجتماع الأمر برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه، ثم يكون ذلك من غمام آخر، آخر الدهر، إن شاء الله".

ومضى ابن المقفع يذكر أن اختلاف الأحكام إذا كان يرجع إلى سنن ماثورة غير مجمع عليها فينبغي الأخذ بما هو أشبه بالعدل، وإذا كان يرجع إلى استخدام الرأي والقياس، فإن القياس قد يخطئ، وليس المدار على القياس في حد ذاته، وإنما المدار على ما يقود إلهي فإن قاد إلى حسن أخذ به وإن قاد إلى قبيح ترك، إذ المراد ليس عين القياس، وإنما المراد إحقاق الحق لأهله. ولعل هذه الدعوة إلى إصلاح التشريع وجمع السنن والأحكام والأقضية ووضع قانون عام للقضاء هي التي دفعت المنصور ليطلب إلى مالك أن يؤلف في الفقه كتابه "الموطأ" وقد قال له: إني أريد أن ترسل لي به لأكتب منه نسخاً يرجع إليها الناس في الأمصار، غير أن مالكا لم يرتض الفكرة، لأن المسلمين في كل بلد رووا من السنة النبوية ما دانوا به، غير أنه ألف "الموطأ" وذاعت أحكامه الفقهية في الحجاز، وفي كثير من المصار وخاصة في مصر والمغرب والأندلس. ويدعو ابن المقفع بعد ذلك المنصور إلى العطف على أهل الشام مع ما يكونونه للدولة من عداوة، لسلبها السلطان منهم، وأن يصطنع خيارهم، فيتبعهم في محبة الدولة غيرهم، وتأخذ دائرة هذه المحبة في الاتساع. ويطلب إليه أن يرد عليهم فيئهم، حتى يذعنوا للدولة عن رضا، وحتى تهدأ نفوسهم فلا تكون منهم وثبات ولا ثورات. ويتحول ابن المقفع إلى بطانة الخليفة ورجال دولته ويطلب إليه أن يعيد النظر فيهم، فإن بينهم كثيرين ليسوا بذوى بلاء ولا فيهم غناء، بل بينهم من اشتهروا بالفجور والأعمال القبيحة، مع أن منهم من يصرف أمور الدولة ومن يعمل في دواوينها. وحرى بالخليفة أن يجعل أساس اختياره لحاشيته الأمانة، والعدالة وجودة الراى وأن لا يقرب منه إلا من صنع مكرمة عظيمة أو أبلى بلاء حسناً، أو عرف بأصالة رأيه وحصافته أو كان عالماً ينتفع الناس بعلمه، وعليه أن يجعل لكل منهم اختصاصاً في عمله لا يتعداه. ونصحه بأن يستخدم أهل بيته ويسند إليهم جسام الأمور والأعمال. ثم وقف عند الخراج أو بعبارة أخرى الضرائب المفروضة على الراضى والضياع في الدولة، ولفت المنصور إلى ما فيها من فوضى، إذ ليست هناك قواعد مقررة، وكل عامل يفرض الضريبة حسب مشيئته، ودعاه إلى وضع وظائف ثابتة على كل أرض وكل ضيعة، وبذلك يقف ظلم العمال ويأمن الزراع على عمارة ضياعهم وأراضيهم، كما دعاه إلى تخير عمال الخراج وتفقدتهم واستبدال من تظهر عليه خيانة. وتحدث عن أهل الجزيرة العربية من الحجاز واليمن ومن وراءهم من البدو، وطلب إلى المنصور أن تسخو نفسه عن أموالهم من الصدقات وغيرها مما يجبى منهم، وكأنه نظر في ذلك إلى فقر بلادهم وجد بها وأنهم كانوا مادة الإسلام والفتوح.

ودعاه إلّيان يولى عليهم الخيار من أهل بيته. وطلب إليه أخيراً أن يعين في الأمصار طائفة من الفقهاء والمنحدرين الناهيين تكون مهنتهم تأديب العامة وتبصيرها الخطأ ومنعها من البدع والفتن، وبذلك رشح ابن المقفع لقيام وظيفة المحتسب في الدولة العباسية، وكان يعهد إلهي بمراقبة الأسواق والحكم فيما ينشأ فيها من منازعات وجنايات وما يكون من خطأ في البيع والشراء أو نقص في المكايل والموازين.

وقد يكون ابن المقفع تأثر في هذه الرسالة ببعض أنظمة الحكم الساسانية وبما سمعه عن قانون جوستنيان الروماني ولكن من المحقق أنه صدر فيها عن فطنة وقفوة ملاحظة لأحوال الدولة الإسلامية في عصره وما حذقه من شئون السياسة التي استوحاها مما قرأه عند الأوائل. ودائماً لا نستطيع أن نخليه في كتاباته من التأثر بالثقافات الأجنبية إذ كان أكبر من اطلعوا عليها في عصره، وكان ذهنه من الخصب، بحيث يستنبط كثيراً من الآراء والفكر وخاصة ما يتصل بالإصلاح الاجتماعي والسياسي. ولعل هذا الإصلاح الذي كان ينشده للدولة العباسية هو الذي دفعه إلى ترجمة القصص الخيالي الهندي، أو بعبارة أخرى ترجمة كليلة ودمنة، ويقال إنها نقلت في عهد كسرى أنوشروان من الهندية إلى الفهلوية، وقد عثر الباحثون على بعض أصولها الهندية، من مثل "بنج تانتر" ومثل "هتوبادشا" ووجدوا منها بعض أصول في "المهابهارتا" مما يؤكد أنه هندية الأصول، بل يثبت إثباتاً قاطعاً^(١). ورجح كثير من الباحثين أن ابن المقفع زاد في الكتاب بعض الفصول والقصص، ولكن ربما زاد ذلك بعض من جاء بعده، إذ ترجم الكتاب مراراً، شعراً ونثراً، وأكب الرظن أن ابن المقفع لم يزد إلا الفصل الذي وضعه بين يدي القصص وسماه "عرض الكتاب" وذكر البيرني قديماً أنه زاد أيضاً باب بروزيه "قاصداً تشكيك ضعفى العقائد في الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب المانية، وإذا كان مهتماً فيما زاد لم يخل من مثله فيما نقل^(٢)". غير أن أبحاث المحدثين أثبتت أن هذا الفصل كان موجوداً في الصل الفارسي، مما يجعلنا نظن أن أصحاب الدعوة المانوية من الفرس استغلوا الكتاب قبل نقله إلى العبية في الدعوة لمذهبهم المانوى.

ومثل ابن المقفع في ترجمة هذا الكتاب مثله في ترجمة الحكم والآداب الفارسية السياسية والاجتماعية والخلفية يصب في دقة المعنى الذي يترجمه في القوالب العربية التي تلائم الذوق

١ مقدمة كليلة ودمنة (طبع دار المعارف) ص ٣٥ وما بعدهها

٢ تحقيق ما للهند من مقولة ص ٨٦.

العربي، بحيث خيل إلى كثير من القدماء أن كل تلك الترجمات من تأليفه وتصنيفه، إذ لم يجدوا أى فارق في الصياغة بين ما يترجمه وينشئه. وحقاً حمل عليه الجاحظ في ترجمته لمنطق أرسطو، إذ لاحظ في ألفاظه قصوراً أحياناً عن أداء المعاني المنطقية^(١)، وهو قصور منشؤه صعوبة أداء هذه المعاني لأول مرة في العبية، ومهما يكن فله فضل الرائد. وهو إن فاته التوفيق في نقل المنطق الأرسططاليسى فإنه لم يفته في بقية ترجماته، وأمامنا كليلة ودمنة التي لا تعد آية من آيات بلاغته فحسب، بل تعد آية من آيات البلاغة العباسية على الإطلاق. وفي رأينا أن غض الجاحظ من ترجمته لمنطق أرسطو هو الذي دفع طه حسين في كتابه "من حديث الشعر والنثر" إلى التشكك في قدرته على أداء المعاني الدقيقة العميقة حتى ليقول عنه: "له عبارات من أجود ما تقرأ في العربية وبنوع خاص في الأدب الكبير وفي كليلة ودمنة، ولكنه عند ما يتناول المعاني الضيقة التي تحتاج إلى الدقة في التعبير يضعف، فيكلف نفسه مشقة ويكلف اللغة مشقة"^(٢) ويبلغ من إزرائه عليه أن يقول إنه "كان مستشرقاً كغيره من المستشرقين يحسن اللغة العربية فهماً، وربما أعياه الأداء فيها" ويستشهد لذلك بأمثلة من رسالة الصحابة والأدب الكبير، كل ما يلاحظ عليها اضطراب في بعض الضمائر، وكأنه نسي أن الرسالتين تداولتهما أيدي النساخ بعد ابن المقفع وأنه ربما دخلها هذا الارتباك من أيديهم. والحق أنه أسرف في إزرائه عليه وفي عده مستشرقاً كالمستشرقين الغربيين في عصرنا، فهو لاء لا يتشأون في بيئات عربية كبيئة البصرة التي نشأ فيها ابن المقفع، وهم لا ينقلون إلى العربية آثار قومهم الأدبية على نحو ما كان ينقل ابن المقفع عن الفارسية، ثم هم لم يوظفوا في الدواوين العربية ولم يعملوا فيها كتاباً يكتبون الرسائل السياسية الرسمية، على نحو ما وظف ابن المقفع. ولم يكن كاتباً فحسب بل كان أيضاً يحسن صوغ الشعر العربي، وقد أجمع معاصروه على أنه كان آية في البلاغة، وجعلوه على رأس البلغاء العشرة الذين سموهم في هذا العصر^(٣)، وبلغ من إعجابهم به أنهم كانوا يكثر من أسئلته عن البلاغة، على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، ونفس الجاحظ يقول في بعض رسائله إن الكتاب الناشئين كانوا يتدارسون آثاره ليحذقوا البيان وليلحقوا عقولهم وألسنتهم بخير لقاح^(٤).

١ الحيوان ١/ ٧٦

٢ من حديث الشعر والنثر ص ٤٨ وما بعدها

٣ الفهرست ص ١٨٢

٤ ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فنكل) ص ٤٢

ولم يكن ابن المقفع بليغاً فصيحاً، بل كان أكبر بلغاء عصره، إذ استطاع أن يملأ أوانى العربية بهادة أجنبية غزيرة، دون أن يحدث فيها انحرافاً من شأنه أن يجر ضرباً من الازدواج اللغوى، إذ من المعروف أن لكل لغة صياغتها وأنماطها الخاصة في التعبير، ولها أيضاً صورها وأخيلتها التي قد تستعصى على الأداء في لغة أخرى. وشئ من ذلك لا يصادفنا عند ابن المقفع، فقد استطاع أن يحتفظ للعربية في ترجماته بمقوماتها الأصيلة، كما استطاع الملاءمة بين الأخيصة والصور الفارسية وذوق اللغة العربية، بحيث لا نحس عنده نبواً ولا انحرافاً، مما يشهد له بقدرته البيانية وأنه استطاع أن يحوز لنفسه السليقة العربية التامة بكل شاراتها وسماتها اللغوية.

والحق أنه كان آية في البلاغة وجزالة القول ورصانته مع سهولته، وقد نصح مرة لبعض الأدباء، فقال له: "إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العى الأكبر". ولعل خير ما يصف بلاغته إجابته لسائل سأله عن البلاغة فقال: "هى التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها".

والمسألة لا تقف عند وصفه بالبلاغة، فهى أوسع من ذلك وأبعد مدى، إذ كان من أوائل من ثبتوا الأسلوب الكتابى العباسى المولد، وهو أسلوب يقوم على الوضوح وأن تشفى الألفاظ عن معانيها وأن تخلو من كل غريب وحشى ومبتذل عامى. ولم يقصر ابن المقفع هذا الأسلوب على ما ينشئه من رسائل ديوانية أو إخوانية، بل عممه في ترجماته، وبذلك وطده أقوى توطيد ومكن له أوسع تمكين، إذ جعله أسلوب النثر العام في العصر مهما اختلفت فنونه. وكانت غزارة معانيه سبباً في أن يتميز هذا الأسلوب عنده بالإيجاز والاقتصاد الشديد، فالألفاظ بقدر المعاني لا تنقص ولا تزيد، والمعانى تؤدى أداءً فصيحاً رصيناً، دون قصد إلى الجمال للتعبيرى من سجع أو ترادف صوتى. ويظهر أنه على الرغم من زندقته كان يبهره جمال القرآن وصياغاته فاستعار من ألفاظه وأساليبه كثيراً في جوانب كتاباته حتى في القصص الحيوانى قصص كليله ودمنة، وطبيعى أن تبلغ هذه الاستعارة عنده الغاية في تحميداته التي كان يفتتح بها الرسائل السياسية الرسمية والتي كان يعظم فيها الدين الحنيف على نحو ما نرى في هذا التحميد^(١):

"الحمد لله ذى العظمة القاهرة، والآلاء الظاهرة، الذي لا يعجزه شئ ولا يمتنع منه، ولا يدفع قضاؤه ولا أمره: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون). والحمد لله الذي خلق الخلق بعلمه،

ودبر الأمور بحكمه، وأنفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه بقدرته منه عليها وملكته^(١) منه لها (لا معقب لحكمه) ولا شريك له في شئ من الأمور (يخلق ما يشاء ويختار) وما كان للناس الخبرة في شئ من أمورهم (سبحان الله وتعالى عما يشركون). والحمد لله الذي جعل صفوة ما اختار من الأمور دينه الذي ارتضى لنفسه ولمن أراد كرامته من عباده، فقام به ملائكته المقربون، يعظمون جلاله ويقدسون أسماءه ويذكرون آلاءه لا يستحسرون^(٢) عن عبادته ولا يستكبرون (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وقام به من اختار من أنبيائه وخلفائه وأوليائه في أرضه يطيعون أمره ويذبون عن محارمه، ويصدقون بوعده، ويوفون بعهده وياخذون بحقه ويجاهدون عدوه. وكان لهم عند ما وعدهم من تصديقه قولهم وإفلاجه^(٣) حجتهم وإعزازه دينهم وإظهاره حقهم وتمكينه لهم، وكان لعدوه وعدوهم عندما أوعدهم من خزيه وإحلاله بأسه، وانتقامه منهم وغضبه عليهم. مضى على ذلك أمره ونفذ فيه قضاؤه فيما مضى، وهو ممضيه ومنفذه على ذلكم فيما بقى (ليتم نوره ولو كره الكافرون) و (لأيقن الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون). والحمد لله الذي لا يقضى في الأمور ولا يدبرها غيره، ابتدأها بعلمه وأمضاها بقدرته، وهو وليها ومنتهاها، وولى الخيرة فيها والإمضاء لما أحب أن يمضى منها (يخلق ما يشاء يختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون). والحمد لله الفتاح العليم العزيز الحكيم، ذى المن والطول^(٤) والقدرة والحول^(٥)، الذي لا ممسك لما فتح لأوليائه من رحمته، ولا دافع لما انزل بأعدائه من نقمته، ولا راد لأمره في ذلك وقضائه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، والحمد لله المنيب بحمده ومنه ابتداءه، والمنعم بشكره وعليه جزاؤه، والمثنى بالإيمان وهو عطاؤه".

والآيات المقتبسة من الذكر الحكيم كثيرة في هذا التحميد، وقد وضعناها بين أقواس لتتضح مواضعها، ووراءها ألفاظ كثيرة مستمدة من القرآن الكريم. وبدا عنده هنا شئ من السجع الذي يأتى عفواً سمحاً، وكأننا ابتغى هنا التنميق بأكثر مما كان يتبعه في ترجماته. ونحن نسوق طائفة من رسائله

١ ملكة: ملك

٢ يستحسرون بالشئ: يهيبأ به

٣ إفلاجه: نصرة

٤ الطول: الإنعام

٥ الحول: القوة

الإخوانية ليتضح لنا مكا كان يبذل فيها من جهد فنى، وأول ما نذكر منها تهنئة بمولودة لأحد أصدقائه على هذا النمط^(١):

"بارك الله لكم في الابنة المستفادة، وجعلها زينا، وأجرى لكم بها خيرا، فلا تكرهها، فإنهن الأمهات والأخوات والعمات والخالات، ومنهن (البقيات الصالحات) ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم، ورب جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم".

واقتبس هنا من القرآن كلمة (البقيات الصالحات) وعنى بالإيجاز والاقتصاد الشديد، ومما كتب به في التعزية عن ولد^(٢):

"إنما يستوجب على الله وعده من صبر الله بحقه، فلا تجمعن إلى ما فجعت به من ولدك الفجيعة بالأجر عليه والعوض منه، فإنها أعظم المصيبتين عليك، وأنكى المرزئتين^(٣) لك، أخلف الله عليك بخير، وذخر لك جزيل الثواب".

والدقة المنطقية واضحة في هذه الرسالة مع ما يجرى فيها من طرافة التفكير، فقد جعل الجزع على الولد فيجعة لا تقل عن فجيرة فقده، بل جعلها أعظم وأنكى، إذ تحرم صاحبها الثواب. وتلطف فدعا لصاحبه أن يعوضه الله من ولده ويخلف عليه بخير منه، ومن رسائله الإخوانية البديعة ما كتب به إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة^(٤):

"أما بعد فإن من قضى الحوائج لإخوانه واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل لا لهم، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع لا بد لزراعه من حصاده أو لعقبه من بعده. وكتبت إليه، ولحالنا التي نحن بها فيما نذكر لك حاجة، أول ما فيها معروف، تستوجب به الشكر علينا، وتدخر به الأيادي قبلنا".

ودقة التفكير واضحة في الرسالة، فقد جعل قضاء أخه لأخيه حاجة ليس مما يؤديه إليه، وإنما يؤديه إلى نفسه، لقيامه بحقوق أخيه ونهوضه بواجبه نحوه. ويتحدث عن بذل المعروف، ويتبادر إليه جحود بعض الناس، فيقول إن المعروف غرس لا بد من حصاده حتى عند من يجحدون ولا يشكرون. مرت

١ جمهرة رسائل العرب ٣/ ٥٧

٢ جمهرة رسائل العرب ٣/ ٥٨

٣ المرزئتين: المصيبتين

٤ جمهرة رسائل العرب ٣/ ٦٠

بنا في الفصل السائق رسائل إخوانية تحول بها بعض الكتاب إلى ما يشبه رسائل أدبية تصف الخوة والصدقة من حيث هما مفصلة صفاتها وشرائطها، ولابن المقفع قطعة أدبية بديعة في وصف أحد إخوانه، وفي رأينا أنه لم يصف فيها أخاً بعينه، إنما وصف المثل الأعلى للأخ الكامل، أو بعبارة أدق للرجل الفاضل، وهي تمضي على هذه الشاكلة^(١):

"إنني مخبرك عن صاحب لى كان أعظم الناس في عينية، وكان رأس ما عظمه عندي صغر الدنيا في عينه. كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد. وكان خارجاً من سلطان فرجه، فلا يدعو إليه ريبة، ولا يستخف له رأياً ولا بدنأً، وكان لا يأشر^(٢) عند نعمة ولا يستكين عند مصيبة. وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يهاري^(٣) فما علم. وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقدم إلا على ثقة بمنفعة. وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا نطق بذ القائلين. وكان يرى ضعيفاً مستعفاً، فإذا جد الجد فهو الليث عادياً. وكان لا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مرء ولا يدلى بحجة، حتى يرى قاضياً فهماً وشهوداً عدولاً. وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله، حتى يعلم ما اعتذاره. وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء، ولا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة. وكان لا يتبرم، ولا يتسخط، ولا يتشكى، ولا يتشهى. وكان لا ينقم على الولي ولا يغفل عن العدو، ولا يخص نفسه دون إخوة أنه بشئ من اهتمامه وحيلته وقوته. فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها، ولن تطيق ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع".

وواضح أن هذا الوصف للرجل الكامل وخصاله يعد درة ثمينة من درر البلاغة العباسية، ومن الخطأ البين أن يقال عن صاحبه وصاحب النصوص التي أسلفناها إنه كان كأحد المستشرقين يتعثر في أساليبه وتضطرب لغته، ويعيبه أحياناً الأداء السليم ويستعصى عليه استعصاء، فقد كانت اللغة العربية تستقيم له، وكان أعجوبة زمانه في البيان والبلاغة مع الجزالة والنصاعة حيناً، وحيناً آخر مع العذوبة والرشاقة.

١ انظر هذا الوصف في آخر الأدب الكبير وفي زهر الآداب ١/ ١٧٩ وفي جمهرة رسائل العرب ٣/ ٥٦

٢ يأشر: يبطر

٣ يهاري: يجادل

سهل بن^(١) هرون

هو سهل بن هرون بن راهبوني كما جاء في البايين والتبيين، وفي كتاب البخلاء "راهبون" وفي الفهرست "رامنوي" وفي حياة الحيوان للدميمي "راهويه" وهو فارسي الأصل، وعلى نحو ما اختلف الرواة في اسم جده اختلفوا في مسقط رأسه، فقليل إنه من أهل دستميسان، وهي كورة بين البصرة وواسط والأهواز، وقيل إنه من أهل ميسان قرية بتلك الكورة، وقيل إنه من أهل نيسابور. ولا يعرف تاريخ مولده، وأغلب الظن أنه ولد حوالي منتصف القرن الثاني الهجري، وقد ترك مسقط رأسه مبكراً إلى البصرة، وأقبل على التزود من ينابيع الثقافة التي كانت منبثة بها، وخاصة علم الكلام وما نقل عن الأجانب من مختلف الترجمات فارسية ويونانية وهندية وأخذ هو نفسه يشارك في ترجمة بعض الرسائل عن لغته الأصلية. وتجذبه بغداد إليها أملاً أن ينال بها شيئاً من المجد والشهرة، وسرعان ما يقربه يحيى البرمكي وزير الرشيد منه، فيلحقه بالدواوين، حتى غذا أسس الرشيد دار الحكمة عين بها للإشراف على بعض الكتب وبعض ما كان يترجم فيها من الآداب الأجنبية، إذ كان أحد النقلة الناهيين من لسانه الفارسي إلى العربية. وفي أثناء صلته بالبرامكة وبعد نكبتهم سنة ١٨٧ للهجرة انعقدت صداقة وثيقة بينه وبين الفضل بن سهل مدبر شئون المأمون ومستشاره وكاتبه، فقدمه إلى المأمون، فأعجب ببلاغته وصحة منطقته وذكائه، حتى إذا تحولت الخلافة إليه وأخذ يعنى بشئون دار الحكمة عنايته الواسعة المعروفة، إذ حولها إلى ما يشبه أكاديمية ضخمة، جعله قيماً

١ انظر في ترجمة سهل وأخباره البايين والتبيين ١/ ٥٢، ٨٩، ١٩٦، ٢٣٨، ٣٤٦، ٢٩/ ٣، والخوان ٢/ ٣٧٤، ٦٦/ ٣ و ٤٦٦، ٥/ ٦٠٣، ٧/ ٢٠٢ والفهرست ص ١٧٤ وزهر الآداب ٢/ ٢٥٧ - ٢٥٩ والتنبية والإشراف للمسعودي (طبع ليدن) ص ٧٦ وعيون الأخبار ٣/ ٢٥، ١٣٨، ٤/ ١١٢ وشرح قيادة ابن عبدون لابن بدرون (طبعة دوزي) ص ٢٤٣ والعقد الفريد ٥/ ٥٨ وفي مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وفوات الوقيات ١/ ١٨١ وشرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباته (نشر دار الفكر العربي) ص ٢٤٢ وحياة الحيوان للدميمي ١/ ٥١٣ وحولية الجامعة التونسية العدد الأول سنة ١٩٦٤

على خزائن كتب الفلسفة التي جلبت من قبرص، ليشرف على نقها إلى العربية. وكان يلزم المأمون في مجالسه وندواته التي كان يعقدها لكبار العلماء والمتكلمين، ومازال خازناً بدار الحكمة حتى توفي سنة ٢١٥ للهجرة.

واشتهر سهل في زمانه بالحكمة والبلاغة حتى سماه معاصروه بزرجمهر الإسلام، إشارة إلى أنه يحل في العربية محل بزرجمهر في الفارسية وما أثر عنه من حكم وأمثال كثيرة، ووصفه الجاحظ فقال: "كان سهل سهلاً في نفسه عتيق الوجه"^(١)، حسن الشارة، بعيداً من القدامة"^(٢)، تقضى له بالحكمة قبل الخبرة وبرقة الذهن قبل المنخاطبة وبدقة المذهب قبل الامتحان، وبالنبيل قبل الكشف"^(٣) ووصفه الحسن بن سهل وزير المأمون فقال: "وازن العلم، واسع الحلم، إن حوادث لم يكذب، وإن وموزح لم يغضب، كالغيث أين وقع، وكالشمس حيث أولت، أحييت، وكالأرض ما حملتها حملت، وكالماء ظهور للتمسه وناقع لغلة من حر"^(٤) إليه، وكالهواء الذي تقطف منه الحياة بالتنسم، كالنار التي يعيش بها المقرور، وكالسماء التي قد حسنت بأصناف النور". ويقول ابن النديم إنه كان "شعوبى المذهب، شديد العصبية على العرب، وله في ذلك كتب كثيرة ورسائل في البخل، وكأنه أراد بتلك الرسائل أن ينقض فضيلة الكرم العربية. وكان البخل سجية وطبعاً ركب فيه، ورويت عنه في ذلك نواذر كثيرة، منها أن شخصاً لقبه، فقال له: هب لي ما لا ضرر به عليك، فقال: وما هو يا أخى، قال: درهم، فقال سهل: لقد هونت الدرهم، وهو طائع الله في أرضه لا يعصى، وهو عشر العشرة، والعشرة عشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف دية المسلم، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذي هونت، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم. فانصرف الرجل، ولوا انصرفه لم يسكت سهل. ومن حكاياته العجيبة في البخل ما حكاه دعبل، قال: "كنا عنده يوماً، فأطلقنا القعود ولم نبرح، حتى كاد يموت جوعاً، فلما اضطررناه قال: يا غلام ويلك غدنا، فأتاه بصحفة فيها مرق، تحته ديك هرم لا تحز فيه

١ عتيق الوجه: جميل

٢ القدامة: العي

٣ البايين والتبيين ٨٩ / ١

٤ حر: عطش، والصفة حران

السكين ولا تؤثر فيه الأضرار، فاطلع في الصحيفة وقلب بصره فثما، ثم اخذ قطعة خبز يابس، فقلب جميع ما في القصعة، حتى فقد الأس من الديك. فبقى مطرقاً ساعة، ثم رفع رأسه إلى الغلام، فقال: أين الرأس؟ فقال: رميت به: قال سهل: ولم رميت به؟ قال: لم أظنك تأكله، قال: ولأى شئ ظننت أنى لا أكله؟ فوالله إنى لأمقت من يرمى برجليه، فكيف من يرمى برأسه، ثم قال له: لو أمأكره ما صنعت إلا للطيرة (التشاؤم) والفأل لكرهته، الرأس رئيس وفيه الحواس الخمس، ومنه يصبح الديك، ولو لا صوته ما أريد، وفيه فرقة الذي يتبرك به، وعينه التي يضرب بها المثل، يقال شراب كعين الديك في الصفاء، ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم أر عظماً قط أهش تحت الأسنان من عظم رأسه، فهلا إذ ظننت أنى لا أكله ظننت أن العيال يأكلونه؟ وإن كان بلغ من نبلك أنك لا تأكله فإن عندنا من يأكله، أما علمت أن خير من طرف الجناح ومن الساق والعنق؟ انظر أين هو؟ قال: واغلهل ما أدري أين رميت به، قال سهل: لكنى أدري أنك رميت به في بطنك، والله حسيبك". ولعل في هذه النادرة وسابقتها ما يدل على ظرفه، وهو ظرف كان يشوبه بالفكاهة الحلوة أحياناً، وأحياناً بالسخرية المرة، من ذلك أنهم قصوا عنه أنه حدث بعض الأمراء، فقال له كذبت، فأجابه على البديهة: إن وجه الكذاب لا يقابلك، يعنى أن الأمير هو الكذاب، لأن وجه الإنسان لا يقابله. وطلب إليه أبو الهذيل العلاف المتكلم المشهور أن يكتب له رسالة إلى الحسن بن سسهل يوصيه فيها به، فلبى طلبه، ولما تقدم بها إلى الحسن وفضها وقرأ ما فيها أغرب في الضحك، إذ وجد سهلاص ينهأ عن أن يمد لأبى الهذيل العون بآيات تتحيفه وتقيض يد قارئها عن مساعدته، استهلها بقوله:

إن الضمير - إذ سألتك حاجةً	لأبى الهذيل - خلاف ما أبدى
فامنحه روح اليأس ثم امدد له	حب الرجاء بمخلف الوعد
حتى إذا طالت شقاوة جده	وعنائه فاجبه بالرد

وقال الحسن: هذه صفته لا صفتنا، وأمر لأبى الهذيل بهال، فعاد إليه، وعاتبه، فقال سهل: ترى أين عزب عنك الفهم، أما سمعت قولى: "إن الضمير خلاف ما أبدى، فلو لم يكن

ضميرى الخير ما قلت هذا. وهى مغالطة واضحة، غير أنها تدل على قدرته العقلية في الإتيان بالحجة الصحيحة تارة، والحجة المدخولة تارة ثانية.

وكان سهل يحسن القول نثراً وشعراً، وفيه يقول الجاحظ: "ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسير الحسان المدونة والأخبار المولدة سهل بن هرون بن راهبوني الكاتب صاحب كتاب ثغله وعفراء في معارضة كتاب كليله ودمنة، وكتاب الإخوان وكتاب المسائل وكتاب المخزومي والهذلية وغير ذلك ن الكتب، وذكر ابن النديم من كتبه أيضاً "كتاب النمر والثعلب، وكتاب الوامق والعذراء، وكتاب ندود ودود ولدود وكتاب الضريين وكتاب الغزالين وكتاب أدب أسل بن أسل وكتاب إلى عيسى ابن أبان في القضاء وكتاب تدبير الملك والسياسة". وذكر ابن نباتة كتاباً له في سيرة المأمون.

ويظهر أنه عنى في كثير من كتبه بالقصص على ألسنة الحيوان، مشاكلة لكتاب كليله ودمنة، وكان من أهم ما وضعه في ذلك كتاباه: "ثعلة وعفراء" و "النمر والثعلب" وقد أشد المسعودى بأولهما وقال إنه يزيد على كليله ودمنة بحسن نظمه. وقد اتخذ من الحيوان وسيلة للعبظة والتربى الاجتماعية والسياسية بما يفصل من الكلام وضرب الحكم والأمثال بالضبط كما صنع واضع كليله ودمنة، ولم يبق لنا من كتاب ثعلة وعفراء سوى هذه النصيحة:

"اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدماً ما قبل الذي تجودون به من تفضلكم، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مظاهر على وهن العقيدة وتقصير الروية، ومضر بالتدبير ومخل بالاختيار، وليس في نفعه تحمد به عوض من فساد المروءة ولزوم النقيصة".

ويقول الحصرى بعد ذكره لهذه النصيحة: إن هذا الكتاب مملوء حكماً وعلماً. وعشر السيد عبد القادر المهيرى حديثاً على كتاب النمر والثعلب، ونشر مقتطفات منه مع مقدمة في العدد الأول من حولية الجامعة التونسية، والكتاب، أو بعبارة أدق القصة تدور على ثلاث شخصيات هي الثعلب الحكيم والذئب الجحود والنمر الطاغى، وتتسلسل القصة تسلسلاً دقيقاً، فالثعلب كان يعيش مع زوجه في واد غبر عليه زمان عليه وهو حسن الحال رعى البال، ومر به ثعلب آخر، فأنكر موضع جحره من الوادى ونصحه أن يتحول عنه، مخافة أن يهجم عليه السيل،

واستشار زوجته، فأبّت عليه التحول، ولم يلبث أن جاء طوفان من السيل حمله وحده إلى جزيرة لم يسمع بها حسيماً، ولم ير أنيساً، فبات ليلته طاوياً حتى أصبح، وبينما يتلفت من حوله إذا ذئب يمر به، فتعارفاً، وسرعان ما عرف منه أن الجزيرة تمتلئ بالطباء وبقر الوحش غير أنه لا يستطيع أن يصيدها ولا أن يقربها ولا أن يتجاوز موضعه، لخضوع الجزيرة وكل ما بها من وحش للملك طاغ باغ هو النمر الذي تجبر وتكبر. وقال له: إننى لا أكلّمك الآن إلا فزعاً مرتعباً خشية أن يرانا، فلننصرف، ولنلتق غداً في مكان خفى، فالتقيا، وأشار عليه الثعلب أن يقدم على النمر فيتلف له ويطلب منه ولاية في الجزيرة يقوم على حكمها ويشاطره خيراتها، ويتعخذ منه وزيراً يعينه على إدارتها، ويبدى الذئب خوفه من لقاء الملك الباطش، وما يزال يشجعه حتى يلقاه. ويعجبه حديثه وما عرض عليه، فيعيّنه والياً على مناهل الأطباء، ونحن نسوق هذه الطقعة من القصة لندل على أسلوب سهل وطريقته في هذا القصص الحيواني الخيالى ن وهى تحكى ما حدث بعد لقاء الثعلب للذئب فجأة واتفاقهما على اللقاء، وما كان بينهما من حوار في هذا اللقاء، وما أثمر الحوار للذئب من الولاية وللثعلب من الوزارة:

"انصرف الثعلب حزينا مغتماً لما حزره من عداوة النمر وعدم القوت، ثم فكر فقال: إنما يعرف فضل عقل المرء في شدائد الأمور ونوازل الخطوب، فأما عند الرخاء فما أقرب الجاهل من العالم والأحمق من العاقل، وذلك أن مساعدة الدنيا للجاهل سائرة لنقصه عن زيادة العاقل وحاجبة عن التمييز بينه وبين اللبيب وليس لمثل قوة على صيد الأطباء وبقر الوحش، وإنما يصيد كل امرئ (على) قدره، وليس ههنا إلا طلب الحيلة. فلما أصبح الصبح قصد المكان الذي وعد الذئب فيه والتقيا هنالك عن رقبة (تحفظ) من النمر، فقال له الثعلب يا أبا الفراءى كنت مهموماً بنفسى، فزادنى اهتماماً ما أبثتنى من حديثك وألقيت إلى من سوء حالك، وههنا تدبير إن أعنتنى عليه بهمة صادقة، فلعله أن يعود إلى صلاح، فقال الذئب: وما هو؟ قال الثعلب: ائت النمر، فسله أن يولييك ولاية ترد عليك نفعاً وترد لك ذكراً وتكسبك حمداً، قال الذئب: فأين ما أخبرتك عن بخله وشراسة خلقه، وإنه لكما قال القائل: سواء هو والعدم، قال الثعلب: فأعلمه أنك لا تفيد شيئاً إلا بعثت إليه بطشره فإن لك فيما يبقى منتفعاً وصلاًحاً، فإن أجابك فلن تعدم منى معونة حسنة وقياماً بالذى يجب، وكن كما قال الشاعر:

وليس الرزقُ عن طلبِ حَثِيثٍ

ولكن أَلْقَ دَلُوكَ في الدَّلَاءِ

تَجَنَّبْ بِمَلَّتْهَا طَوْرًا وَطَوْرًا

تَجَيَّ بِحَمَاءٍ وَقَلِيلِ مَاءٍ^(١)

قال الذئب: يا أبا الصباح إنه كان يقال: الاتقوا مقارفة^(٢) الحريص الغادر، فإنه إن رآك في القوة رأى منك أخطر حالاتك، وإن رآك في الفضول^(٣) لم يدعك وفضولك، قال الثعلب: يا أبا الفراء: إنه ليس الرأي.. من عاش غير حامل الذكر والمنزلة إذا أفضل على نفسه وأصحابه فهو وإن قل عمره طويل العمر، ومن كان عيشه في ضيق وقل خيره على نفسه وعلى الناس فهو وإن طال عمره قصير العمر. قال الذئب: إنه كان يقال: أمور ثلاثة لا يجترئ عليها إلا أهوج ولا يسلم منها إلا قليل: صحبة اسلطان وائتمان النساء على الأسرار وشرب السهم على التجربة. قال الثعلب: قد يبلغ الخصم بالقضم^(٤)، ويركب الصعب من لا ذلول له. وليس يواظب على باب السلطان أحد، فيلقى عن نفسه الأنفة ويتحمل الأذى ويكظم الغيظ ويرفق بالناس إلا خلص إلى حاجته من السلطان. قال الذئب: إنه كان يقال: لا تغتبط بسلطان من غير عدل، ولا بغنى من غير فضل ولا ببلاغة من غير صمدق، ولا بجود من غير إصابة، ولا يحسن عمل من غير خشية. قال الثعلب: إنه ينبغي للعاقل إن يدارى الزمان مداراة الرجل السابح في الماء الجارى، وقال الممثل: أَرْضَى مِنَ الْمَرْكَبِ بِالتَّعَلُّقِ. قال الذئب: السبب الذي يدرك به العاجز حاجته هو السبب الذي يحول بين الحازم وطلبته. قال الثعلب: المال زيادة في القوت والرأى، وليس الإخوان والأهل والأعوان إلا مع المال، ولا يظه المروءة إلا المال، لأن من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمراً قعد به العدم فقصر عنه. قال الذئب: إن للسلطان سكرات، فمنها الرضا عن بعض من يستوجب السخط، والسخط عمن يستوجب الرضا، ولذلك قيل: قد خاطر من لجج في البحر، وأشد منه مخاطرة من صاحب السلطان. قال الثعلب: من لم يركب الأهوال على صعوبتها لم ينل الرغائب، ومن ترك الأمر الذي لعله أن يبلغ فيه حاجته مخافة ما لعله يوقاه

١ الحماء: الطين الأسود

٢ مقارفة: مخالطة

٣ الفضول: جمع فضل وهو النعمة

٤ مثل معناه أن الغابة البعيدة قد ترك بالرفق. وأصل الخضم الأكل بجميع الفم، والأكل بأطراف الأسنان.

فليس ينال جسيماً، وقد كان يقال: أعمال ثلاثة لا أحد يستطيعها إلا بمعونة ارتفاع همة وعظم
خطر: صحبة الملوك وتجارة البحر ومناجزة العدو. فأعجب الذئب كلامه، وفأتى النمر، فشكر
له، وأقام بين يديه، وكان لا يعرفه بمثل هذه الذلة. فافتتح الكلام، فقال: أيها الملك إنى لما أنا
عليه من المناصحة والموالة تأملت باب الملك فوجدته خالياً من صالحى الأعوان وثقات
الخدم، ولما رايت الملك كثير الكلف عظيم المؤن ربح الفناء جزل العطاء، وليس له من عبيده
من يعينه على مئنته ويكفيه المهم من عمله ندبت نفسى للذى رأيتنى أقوى عليه ن حسن
السياسة وضبط الناحية التى أتولاها ورد المنفعة على الملك منها. فأعجب النمر كلامه وطمع
فيما وعده، فقال له: صدقت وبررت، وأنا مستكفيك ومقلدك، فأنظر كيف يكون ضبط
وكفائتك وغناؤك ووفائك بما شرطت على نفسك. اكتب له يا غلام عهده على منهل الظباء،
واجمع له أعمال ما هنالك، فخرج الذئب إلى عمله، واستخلف الثعلب وأحلّه محل الوزير
الكاتب".

ومضى الذئب إلى ولايته مستصحباً وزيره، حتى إذا دانت له رعيته واستتب أمره وتمكن
سلطانه أمسك بما كان يرسله للنمر من الخيرات والطيبات، وراسله النمر وذكره بعهوده
ووعوده، ولكنه ظل سادراً في غيه، فكتب إليه يحذره وينذره بالعقاب والنكال، وكان الذئب قد
صمم على التمرد ونقض الطاعة، فرد على النمر بهذه الرسالة العنيفة:

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الهل على سيدنا محمد النبى الكريم، أما بعد فإن كتاب
الملك - أمتع الله به - وصل إلى بما حذر فيه وأنذر، وقدم وأخر، وفهمته، وقد كان الملك - حفظه
الله - أسند إلى أمان هذا الثغر المخوف على حين انتشار من العدو به، وانقطاع من سبله،
واختلاف من الكلمة بين أهله وتفرق من الأهواء فيه، فرأيت^(١) صدع الآفة، وجمعت شمل
الطاعة، وكشف دجية^(٢) الفتنة وأسغت الريق بعد الشجا^(٣)، وقمعت أولى العداوة والبغضاء،

١ رأيت: أصلحت

٢ الدجية: الظلمة

٣ الشجا: الغصة وما يعترض فى الحلق

وأقمت حقاً كان معلمه^(١) متروكاً، ودمغت ضلالة كان طريقها مسلوكةً، ألتمس بذلك جزيل الثواب وكريم المآرب ورضا الملك والزلفة عنده، فعاد ما عملته هباءً، ولم أجد منه شيئاً مشكوراً، وما يقعقع لمثلي بالشنان^(٢) وإنى لألوى بعيد المستمر^(٣) فإن يستتم الملك صنيعته ويرب^(٤) نعمته فأنا بين العصا ولحائها^(٥) وإلا فسيجدني جذل حكاك^(٦) إذا نكأت^(٧) قرحة أدميتها، أحمر^(٨)، ضرباً بالسيف، والسلام".

فلما قرأ النمر الرسالة عرف أنه عزم على الانتقاض عليه فجمع وزراءه، وكانوا ثلاثة، فاستشارهم في أمره، فأشار الأول بالكتابة إليه في إيجاز لتبين دخيلة أمره وحقيقة موقفه إن سلماً فسلم وإن حراباً فحرب، وأشار الثاني بالصفح عن زلته، فإن الحرب سجال، وهى حتى على الظافر خسارة في الأموال والرجال، وأشار الثالث بمحاربته قبل استفحال أمره وحتى لا يظن غيره من الولاة أن بالنمر ضعفاً، فيحاكوه ويسقطوا عن ظهورهم فرائض السلطان وخراجه، وأخذ النمر بقول الوزير الأول، فكتب إلى الذئب رسالة، نسختها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم، أما بعد فإنى رأيتك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فغذاً نظرت في كتابى هذا فاعتمد على ايها شئت فإن كنت سلماً فأقبل وإلا فأذن بحرب، والسلام".

ولج الذئب في عصيانه، ونشبت بينه وبين النمر معارك حامية الوطيس، انتهت بمقتله والقبض على الثعلب وزيره ومدير أموره، وكاد أن يقتل لولا ما لاحظ النمر من ذكائه ودقة

١ معلمه: مفرد معاله

٢ الشنان: جمعه شن وهو الجلد اليابس وققعق: ضرب. وكانوا إذا ضربوا عليه نفرت الإبل، ويضرب ذلك مثلاً لمن لا يرهبه وعيد ولا إنذاء ولا تخويف

٣ ألوى: عسر، يلتوى على خصمه، بعيد المستمر: قوى فى الخصومة

٤ يرب: ينمى ويزطيد

٥ لحاء العصا: قشرها. والكناية واضحة

٦ الجذل: أصل الشجرة. حكاك من الحك وهو الدلك، وجذل حكاك: مثل يضرب لمن يستشفى برأيه

٧ نكأت القرحة: قشرها قبل أن تبرأ

٨ كنى بالحمرة عن البأس الشديد

تفكيره، مما جعله يخشع يعدة أن يبقى على حياته إن هو أحسن الإجابة على ام يلقى عليه من أسئلة. وتتوالى الأسئلة في افسان والعقل وحظ العقلاء منه وتفاضلهم فيه وفي مكانة العقل من العلم وأثره في سلوك الإنسان وشيمه الخلقية وما يصيبه من خير أو شر. وتلقانا في هذه الإجابات طرافة تفكير سهل ودقته وتعمقه، ومن خير ما يصور ذلك حديثه عن تفاضل العقول والعقلاء ونزولهم في درجات متفاوتة تفاوتاً بعيداً، ومع ذلك يطلق عليهم جميعاً اسم واحد، يقول مورداً السؤال والإجابة، ومنتهاً إلى أن العقل الكامل من صفات الله وحده.

"أخبرنى عن العقل أهو شىء إذا نال الإنسان أدناه فقد بلغ أقصاه أم الناس في نيله مستوون أم متفاضلون؟ قال: بل متفاضلون، قال: فكيف دعى ذو الحظ اليسير منه باسم ذى الحظ الكبير، فقيل لهما علاقان وهما في العقل متباينان؟ فهل يقع القلب الواحد على ذوى الدرجات الشتى؟ قال: نعم، وليس ذلك بخطأ من القائل، لأن هذه الدرجات الشتى من جنس واحد، واللغة تضيق عن هذا وما أشبهه أن يدعى كل ذى درجة من درجات الجنس الواحد بلقب غير لقب الآخر، ولو كلفت اللغة ذلك لطال الكلام.. لتوزعه المعنى المستوجب للاسم ولكنها شملتها كلها باللقب الواحد ودعت المختلفين فيه باسم واحد. قال: فكيف يعرف الناقص من الزائد وقد جمعها اسم واحد؟. قال: بالتمييز وكشف المعرفة، ومثل ذلك في اللغة ما يدعى به أهل صناعة من الاسم الواحد وهم في تلك الصناعة متباينون في التفاوت، إذ يقال: بناء وبحارون وتجار وخياطون، ولكل منهم على صاحبه فضل أو عليه له فضل. فالناس كلهم مستوون فيما يلحقهم من النقص في العقل، وهم فيما أتوا منه متفاضلون، أحدهم فيه أكثر حظاً منه. قال: كيف مدت هذه الغاية ومنعه ذوو العقل بلوغها؟ قال: لأن الغاية كمال، والكمال صفة لا تصح إلا للخالق، ولا يستوى الخالق والمخلوق في صفته، تعالى الله عن ذلك"

وواضح ما أودعه سهل هذه القصة الحيوانية من تصوير لحكم الملوك المتجبرين والولاة المتمردين وحيل الوزراء الدهاة، مستخلصاً في ثنايا ذلك كثيراً من العظات وناثراً كثيراً من الحكم والأمثال. وهو يبتغى بذلك نفس الغاية التي ابتغاها واضع كليله ودمنة من نصيح الملوك والحكام عن طريق ما يجرى على ألسنة الحيوان من مقت الظلم والبغى وسوء السيرة ومحبة العدل والإنصاف. وهو يتعمق أكثر مما تعمق صانع كليله ودمنة، إذ يعرض للعلم والجهل

والعقل وإرشاده الإنسان إلى الخير وصرفه عن طريق الشر. والقصة مشوقة لا بما فيها من حوار فحسب، بل بطرافة الحوار وما يجري فيه من حيل وأفكار دقيقة نادرة. وفي أساء كتب سهل التي ذكرناها أنفاً ما يدل على أنه أجرى بعض قصصه على ألسنة الإنسان مباشرة على نحو ما يدل على ذلك اسم كتابه "المخزومي والهدلية" واسم كتابه الثاني: "الواقق والعذراء".

واحتفظ الجاحظ في أول كتابه البخل برسالة طويلة له يحتج فيها للبخل وينصره عليها الكرم، ومر بنا ما يقال من أنه كتبها شعوبية على العرب، إذا حاول فيها أن يهدم فضيلة الكرم العربية هدماً. ويذكر الرواة أنه قدمها إلى الحسن ابن سهل يرجو مكافأته عليها، فكتب له على ظهرها: "وصلت رسالتك ووقفنا على نصيحتك وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك والتصديق لك". ونراه في فاتحتها يتوجه بالحديث فيها إلى بني عمه، وظن القدماء أنه يريد بني عمه الحقيقيين من آل راهبون، وأغلب الظن أنه يقصد العرب. وقد مضى يذكر أنه إنما يقصد هدايتهم وأنه إن أخطأه سبيل إرشادهم فلن يخطئه سبيل حسن النية، ثم أخذ يورد دفاعه عن البخل ومحاسنه، مستعيناً بقدرته على الجدل وصنع الحجج المنطقية وبها حفظ من بعض أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة والتابعين، وهم إنما كانوا يريدون الاقتصاد وعدم الشطط في الإسراف، أما البخل فلا يرضاه التابعون ولا الصحابة فضلاً عن الرسول الكريم الذي حض على البذل والإيثار والسخاء بكل ما في اليد، كما حض القرآن الكريم لاي على الصدقات فحسب، بل على الاتساع بالإطعام وتقديم الماعون، وصور المثل الأعلى في ذلك فقال جل شأنه: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون). وكل ذلك كان يعرفه سهل معرفة دقيقة، غير أنه كان يريد الدفاع عن البخل، فاختر من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة التابعين ما قد يشهد له، وهو إنما يشهد على زهادتهم في اتلادنيا وصغر متاعها في أعينهم حتى بعد إقبالها عليهم، وفرق بين الزهد والبخل والحرص والشح، ونحن نسوق قطعة من هذه الرسالة، لنطلع من جهة على قدرته في الجدل والحجاج، ومن جهة ثانية على قدرته البيانية، يقول:

"وعبتموني حين ختمت على^(١) عظيم وفيه شئ ثمين من فاكهة نفيسة ومن رطبة^(٢) غريبة على عبد نهم^(٣) وصبي جشع وأمه لكعاء^(٤) وزوجة خرقاء^(٥). وليس من أصل الأدب ولا في ترتيب الحكم ولا في عادات القادة ولا في تدبير السادة أن يستوى في نفيس المأكول وغريب المشروب وثمان الملبوس وخطير المركوب والناعم في كل فن واللباب من كل شكل التابع والمتبوع والسيد والمسود كما لا تستوع مواضعهم في المجالس ومواقع أسمائهم في العنوانات وما يستقبلون به من التحيات.. وعبتموني بخصف^(٦) النعال وبتصدير^(٧) القميص، وحين زعمت أن المخصوفة من النعل أبقى وأوطأ^(٨) وأقوى وأنفى للكبر وأشبه بالنسك، وأن الترقيع من الحزم، وأن الاجتماع مع الحفظ، وأن التفرق مع التضييع. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويقول: "لو أتيت بذراع لأكلت، ولو دعيت إلى كراع^(٩) لأجبت" ولقد لفقت^(١٠) سعدى بنت عوف إزار طلحة^(١١) وهو جواد قريش، وهو طلحة الفياض، وكان في ثوب عمر رفاع آدم وقال: من لم يستحى من الحلال خفت مؤونته وقل كبره، وقالت الحكماء: لا جديد لمن لم يلبس الخلق^(١٢).. فترقيع الثوب يسجمع مع الإصلاح التواضع، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر، وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكسبين، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين.. وعبتموني حين قلت: لا يغترن أحدكم بطول عمره وتقوس ظهره ورقة عظمه

١ السد: السلة

٢ الرطبة: التمر المرطب

٣ نهم: شره

٤ لكعاء: لئيمة

٥ خرقاء: حقاء

٦ خصف النعال: ترقيعها وإصلاحها

٧ تصدير القميص: ترقيع صدره

٨ أوطأ: ألين

٩ الكراع: مستدق الساق

١٠ لفقت: ضمت جانباً منه إلى آخر وخاطبتها

١١ هو طلحة بن عبيد الله كان غيثاً مدراراً في الكرم فلقب بالفياض

١٢ الخلق: البالي

ووهن قوته وأن يرى أكرومه^(١) فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يديه وتحويله إلى ملك غيره وإلى تحكيم السرف فيه وتسليط الشهوات عليه فلعلة أن يكون معمرًا وهو لا يدرى، وممدودًا له في السن وهو لا يشعر، ولعله أن يرزق الولد على اليأس أو يحدث عليه بعض مخبات الدهور، مما لا يخطر على البال ولا تدركه العقول فيسترده ممن لا يردده، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه أضعف ما كان عن الطلب، وأقبح ما يكون به الكسب، فعبتموني بذلك وقد قال عمرو بن العاص: أعمل لدنياك عمل من يعيش أبدًا، واعمل لآخرتك عمل من يموت غدًا.. وعبتموني حين زعمت أنى أقدم المال على العلم، لأن المال به يقاد العلم، وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضل العلم، فهو أصل والأصل أحق بالفضل من الفرع، وإنى قلت: إن كنا نستبين المور بالنفوس فإننا بالكفاية نستبين وبالخلة^(٢) نعمى^(٣). وقلتم: كيف تقول هذا وقد قيل لرئيس الحكماء ومقدم الأدباء: العلماء أفضل أم الأغنياء؟ قال: بل العلماء، قيل: فما بال العلماء يأتون باب الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: لمعرفة العلماء بفضل الغنى ولجهل الأغنياء بفضل العلم. فقلت: حالهما هي الفاصلة بينهما، وكيف يستوى شئ ترى حاجة الجميع إليه وشئ يغنى بعضهم فيه عن بعض.. وعبتموني حين قلت إن فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في الدار، إن احتيج إليها استعملت، وإن استغنى عنها كانت عدة.. وقال بعض الحكماء: عليك بطلب الغنى فلو لم يكن لك فيه إلا أنه عز في قلبك وذل في قلب عدوك ولكان الحظ فيه جسيمًا والنفع فيه عظيمًا. ولسنا ندع سيرة الأنبياء وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء لأصحاب الأهواء".

وبمثل هذه الحجج دافع سهل عن البخل، وهية حجج يستمد فيها من المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وعن حكماء الأمم القديمة وخاصة حكماء أمته الفارسية، مما يدل على اتساع ثقافته. وليس هذا ما يلفتنا وحده في تلك الحجج فإنه يلفتنا فيها أيضاً قدرته المنطقية التية تتضح في إيراد الأقسام المتقابلة إيراداً مستقصياً، كما تتضح في استخدام

١ الأكروبة: فعل الكرم

٢ الخلة: الحاجة والفقر

٣ نعمى: فضل

الأقيسة وتصحيح الأدلة استخداماً دقيقاً، وفي تضاعيسق ذلك تتضح غزارة فكره ومكانه يستمد من معين لا ينضب، كما يتضح إلحاحه على المعاني حتى لكأنه يريد أن يحصرها ويحيط بكامل دقائقها، وتأمل في رده على من يستحث الهرم على إنفاق ماله على النساء وفي الملذات، وفي الوجوه التي وضعها تحت عينه مخوفاً له ومحدراً من تضييع ماله، فستراه يجمع هذه الوجوه في استقصاء وتفصيل دقيق، فهو قد يعمر، وقد يرزق الولد، وقد تنزل به بعض الكوارث، وحينئذ إما أن تحاول استرداد ماله من بعض من أعطاه لهم. ويرد خائباً محسوراً. وإما أن يشكو إلى بعض الناس قلته ولكن لن يرحموه، وفي الحالين يكون قد ضعف عن الكسب وطلب الرزق وبذلك ضيق سهل الأبواب على من يتسع في العطاء والإنفاق حين تتقدم به السن، بل لقد أغلقها إغلاقاً إلا باباً واحداً فتحه على مصاريعه هو باب الشح. وتؤديه غزارة معانيه وأفكاره وحججه وادلته إلى أن يثير موضوعاً طريفاً، هو الموازنة بين العلم والمال وأيهما أفضل من صاحبه، ويورد من الأدلة ما يجعل المال يفضل العلم، ويقتبس من الفقهاء حديثهم عن الول والفروع، فيجعل المال الأصل والعلم الفرع، ولا يستوى فرع وأصل. وسهل في ذلك كله يرينا تطور العقل في العصر العباسي ومدى ما أصابه من رقي ومن نمو ثراء ومن قدرة على الحجاج وبسط الأدلة، حتى ليتحول الكاتب بإزاء بعض الموضوعات إلى ما يشبه مناظراً جديلاً، لا يزال يورد من الحجج والأدلة المنطقية ما يحاول به أن يفحم خهصمه ويقهره، ويظهر أن هذه الطريقة استقرت في نفس سهل بتأثير المتناظرين من المتكلمين في عصره وكثرة مناظراتهم في كل شيء، في العقيدة وغير العقيدة، وكان يرى الناس من حوله يعجبون بالظافر المنتصر على خصمه، وخاصة حين يدافع عن رأي ضعيف، فينصره نصراً مؤزراً، على نحو ما نصر البخل على الكرم، ومن أجل ذلك نفتح الباب للظن بأنه ربما لم ينصره شعوبية على العرب، وإنما نصره إظهاراً لقوة جدله ومقدرته في صوغ الأدلة وتأليف الحجج والبراهين، أو على الأقل كان بيان قدرته على الدفاع عن البخل الأثيم أقوى في نفسه من الطعن على فضيلة الكرم العربية. ومما يوضح هذا الجانب عنده أن نراه يفضل الزجاج على الذهب في رسالة طويلة وكان سبب كتابته لها أن رأى النظام يذم الزجاج، كما رأى شديداً الحارثي يطنب في وصف الذهب، فكتب هذه الرسالة

معارضة لهما ونصرة للزجاج الضعيف وقد سقطتمن يد الزمن إلا قطعة منها رواها صاحب سرح العيون، وهي تمضى على هذا النمط:

"الزجاج مجلو نوري، والذهب متاع سائر، والشراب في الزجاج أحسن منه في كل معدن، ولا يفقد معه وجه النديم، ولا يثقل اليد، ولا يرتفع في السوم^(١) واسم الذهب يتطير منه، ومنه لؤمه سرعته إلى اللثام، وهو فاتن فانك^(٢) لمن صانه، وهو أيضاً من مصايد إبليس، ولذلك قالوا: أهلك الرجال الأحمران^(٣). والزجاج لا يحمل الوضر^(٤) ولا يداخله الغمر^(٥) ومتى غسل بالماء وحده عاد جديداً، وهو أشبه شئ بالماء، وصفته عجيبة، وصناعته أعجب".

ولسهل بجانب رسالته الأدبية الطويلة رسائل إخوانية يتضح فيها جمال التعبير ودقة التفكير على نحو ما نرى في الرسالة التالية^(٦)، وقد كتب بها إلى صديق تماثل للشفاء من مرض:

"بلغنى خبر الفترة^(٧) في إلمامها وانحسارها، والشكاه في حلوها وارتحائها، فكاد يشغل القلب بأوله، عن السكون لآخره، وتذهل الحيرة في ابتدائه، عن المسرة في انتهائه. وكان تعيرى في الحاليتين بقدرهما ارتياحاً للأولى وارتياحاً للآخرى".

وواضح ما في هذه الرسالة الموجزة من الغوص على المعاني، فهو يقابل بين خبر المرض وخبر الشفاء، وكيف شغلته حركة القلب مع الخبر الأول عن السكون وراحته مع الخبر الثانى، وكيف أذهلته الحيرة وكرهها أولاً عن المسرة ومتعتها ثانياً. ويقول إن ما دخله من تغير في الحالين يقاس بارتياحه مع بدء العلة وارتياحه مع انحسارها. وهو في جميع جوانب كتاباته شديد الغوص والتدقيق في معانيه، وجاء السجع على لسانه في أكثر هذه الرسالة، وهو إنما يجيئ عنده أحياناً عفواً وليس معنى ذلك أنه لم يكن يعنى بتوفير الجمال لأساليبه فهو من هذه الناحية يتقدم

١ السوم: المساومة في البيع

٢ فانك: غالب

٣ الأحمران: الذهب وطيب الزعفران

٤ الوضر: الوسخ

٥ الغمر: الدسم

٦ انظرها في سرح العيون ص ٢٤٥

٧ الفترة: الوعكة والضعف

ابن المقفع خطوات، إذ يعنى ببسط عباراته، حتى يجرى فيها ضرورياً من التقطيعات والتوقيعات الصوتية ومن أجل ذلك يكثر عنده الترادف، حتى يصل إلى ما يريد من ازدواج وإيقاعات متقابلة، ودائماً حين نقرؤه يلذ عقولنا بغزارة معانيه ودقتها، كما يلذ أسماعنا بجرس كلامه وحسن أدائه وما يكفل له من تلوينات صوتية بديعة.

أحمد^(١) بن يوسف

هو أحمد بن يوسف بن صبيح الكاتب الكوفي مولى بني عجل، وقد أُلْمنا بأبيه في الفصل الماضي وقلنا إنه كان يكتب في دواوين الكوفي لولاية بني أمية، ثم لما تحولت مقاليد الخلافة إلى العباسيين كتب لعبد الله بن علي ثم التحق بدواوين المنصور، وظل يكتب في دواوين المهدي والهادي، ولمع نجمه في عصر الرشيد والبرامكة، فكان يخلف يحيى البرمكي على الدواوين في قصره وقصر الرشيد. ولا نعرف بالضبط متى ولد له اتبته أحمد، ويغلب أن يكون ميلاده حول منتصف القرن الثاني للهجرة، ويظهر أنه عنى بتأديبه عناية واسعة، كى يصلح للعمل في الدواوين على شاكلته، فأخذه بثقافة عربية دقيقة حتى غدا شاعراً يحسن نظم اغلشعر وصوغه، كما أخذه بثقافة إسلامية واسعة، حتى يعرف الحدود وأحكام أهل الذمة وأصول الدين وفروعه، وأخذه أيضاً بثقافة رياضية واسعة تعينه في الخراج وشئونه.

ولابد أن يكون قد أخذه بثقافات العجم مما يتصل بأداب السياسة وبكتب الفلسفة والحكمة، ولابد أن يكون أيضاً قد أخذ به بأداب اللياقة حتى يحسن مخاطبة الخلفاء والوزراء، وحتى الخط نراه يوجهه إلى إتقانه مم اجعله يشتهر مع فصاحته وبلاغته بحسن خطه، ويروى أن قائلاً له يوماً: ما أدرى مم أعجب، مما وليه الله من حسن خلقك أو مما وليته من تحسين أخلاقك.

وعلى هذا النحو أعد أحمد بن يوسف ليكون مثلاً للكاتب الحاذق النابه، وأغلب الظن أن أباه ألحقه بالدواوين معه، وأنه كتب بين يديه في دواوين الرشيد، وأعجبت الفضل بن سهل مدبر شئون المأمون نجابته، فالتقطه وحثه على التحول معه ومع المأمون إلى مرو حين اتخذها

١ انظر في ترجمة أحمد بن يوسف وأخباره كتاب الوراق للوصلى (قسم الشعراء) من ١٤٣، ٢٠٦ وكتاب غبداً لطيفور في مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٥١٦/٥ والأغانى (طبعة الساسى) ٥٦/٢١٠ وزهر الآداب ٢/ ١٣٠ والفخرى ص ١٦٩ ومعجم الأدباء لياقوت ٥/ ١٦١ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط ص ١٠٩ وانظر الجهشيارى ص ٣٠٤ واللعقد القريد ٢/ ١٤٥

قاعدة لولايته على شرقى الدولة كى يكتب في دواوينه، وأذعن لرغبته، وظل يعمل في الدواوين هناك، حتى بعث طاهر بن الحسين في سنة ١٩٨ إلى المأمون برأسش أخيه الأمين، فلما رآه تآثر، وقال للفضل ابن سهل: ينبغي أن تأمر الكتاب بكتابة رسالة عن طاهر يخبرنى فيها بهذا الخبر، مع الاحتيا للاءعتذار منه، لتقرأ على الناس، فكتب الكتاب عدة كتب لم يرضها الفضل واستطأها. ولم يلبث أحمد بن يوسف أن كتب رسالة محكمة موجزة في شبر من قرطاس كما يقول بعض الرواة، فلما عرضها على الفضل رجع نظره فيها مستحسناً متعجباً من بلاغته ودقة بيانه، ثم قال له: ما أنصفناك وأمر بصلات وفرش وكسى وآلات. وقال له: إذا كان الغد فاقعد في الديوان وليقعد جميع الكتاب بين يديك، واكتب بذلك إلى الآفاق.

ويدور العام، فيجعل المأمون الحسن بن سهل نائبه على بغداد، فيصطحبه معه، وكأن أخاه الفضل أثره به، ليعينه في عمله، ويكتب له في دواوينه ويقدم المأمون إلى بغداد بعد خمس سنوات، فيصبح كاتبه على ديوان الرسائل كما يصبح أثيراً عنده قريباً من نفسه، لظرفه ورقته. وكان فيه ميل شديد إلى الترف فعاش عيشة يحفها النعيم في الفرش وأوانى الطعام وألوانه. وشارك في متاع عصره من الشراب والسماع للقيان، ولكن دون إغراق ومع الاحتفاظ بمروءته وكرامته. ولما توفى أحمد بن أبي خالد وزير المأمون سنة ٢١١ شاور الحسن بن سهل فيمن يخلفه على الوزارة فأشار عليه بابن يوسف، فاستوزره ورفع منزلته، فكان يعرض القصص أو رقاع الشكوى علهي، ويوقع عليها بما يلائمها من العبارات، غير أنه لم يلبث أن وافاه القدر سنة ٢١٣ للهجرة، ويقال إنه اشرف، وهو على وشك الاحتضار على بستان داره وكانت مطلة على دجلة، فظل يتأمل دجلة، ثم تنفس، وقال:

ما أطيبَ العيشَ لولا موتُ صاحبه ففيه ما شئتَ من عيبٍ لعائيه

وسرعان ما التقمه الموت. ولأخيه القاسم الشاعر رثاء له يتفجع فيه تفجعاً، وكانت له جارية يقال لها نسيم كانت تحظى بحبه ويشغف بها شغفاً شديداً، فقالت ترثيه:

ولو أن ميتاً هابه الموتُ قبله لما جاءه المقدارُ وهو هيوِبُ

ولو أن حياً قبله جازه الردى إذن لم يكن للأرض فيه نصيب

وهو يُعَدُّ في الذروة من كُتَّاب الدواوين في العصر العباسي الأول، لبلاغته ودقة تفكيره وحسن تأتبه في الرسائل الديوانية السياسية والرسائل الإخوانية الشخصية، وأول ما نقف عنده رسالته التي أشرنا إليها آنفاً، والتي كتبها الناس على لسان طاهر بن الحسين، وهي تجرى على هذه الصورة^(١):

"أما بعد، فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة (القربة) فقد فرق حكم الكتاب والسنة بينه وبينه في الولاية والحرمة، لفارقه عصمة الدين، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين، يقول الله عز وجل فيما اقتص علينا من نبأ نوح وابنه: (يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح) ولا صلة لأحد في معصية الله، ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله. وكتبت إلى أمير المؤمنين، وقد قتل الله المخلوع ورداه^(٢) رداء نكته، وأحسد^(٣) لأمر المؤمنين أمره، وأنجز له ما كان ينتظر من وعده، فالأرض باكنافها^(٤) أوطأ مهاده لطاعته، وأتبع شئ لمشيئته.. والحمد لله الآخذ لأمر المؤمنين بحقه، والكائد له من خان عهده ونكث عقده، حتى رد به الألفة بعد فرقتها، وجمع به الأمة بعد شتاتها، وأحيا به أعلام الدين بعد دروسها^(٥)، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته".

ودقة التعبير واضحة في الرسالة، وكذلك المهارة في تصوير عصيان الأمين والربط بينه وبين عصيان ابن نوح وما وصفه به القرآن من دفعه عن بنوة أبيه وقرابته. وبذلك لم تعد للأمين ولاية ولا حرمة، فقد خرج من أهله، وهو إنما تولى الخلافة ميراثاً منهم، وقد نكث عهده في الوفاء لأخيه بولاية العهد من بعده، هذا العهد الذي كتبه بيده وعلقه أبوه هرون على الكعبة، حتى لا يستطيع الخروج منه، وقد نال جزاء خيانتته، وعادت الأمور إلى نصابها، فاجتمعت كلمة الأمة بعد فرقتها ورد صولجان الحكم إلى صاحبه تحوطه عناية الله ورعايته، وكان توفيق

١ زهر الآداب ٢/ ١٣٠ وعجم الأدباء، ٥/ ١٦٧ والجهشياري ص ٣٠٤

٢ وداه: ألبسه

٣ أحصد: قوى وأحكم

٤ أكنافها: نواحيها

٥ دروسها: محائها

أحمد بن يوسف في هذه الرسالة دافعاً لأن يطلب منه المأمون والفضل بن سهل أن يكتب رسالة الخميس، وهى الرسالة التي كان يوجهها خلفاء العصر العباسي الأول بمجرد توليهم الخلافة إلى أهل خراسان مادة جيوشهم وغيرهم ييسطون فيها حقهم في الخلافة واستحقاق الخليفة القائم لها لما امتاز به من مناقب حميدة وما ينبغي على أهل خراسان من الولاء له. وأحكم ابن يوسف الرسالة إحكاماً دقيقاً، وطال فيها نفسه حتى بلغت نحو خمس عشرة صحيفة، وأعجب بها معاصروه إعجاباً شديداً مما جعل ابن النديم يقول: "الكتب المجمع على جودتها: عهد أردشير، كليله ودمنة، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية، اليتيمة لابن المقفع، رسالة الخميس لأحمد بن يوسف" وقد استهلها بتحميد طويل طريف على هذا النمط^(١):

"من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين إلى المبايعين على الحق والناصرين للدين، من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام: سلام عليكم فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله، أما بعد فالحمد لله القادر، القاهر، الباعث، الوارث، ذى العز والسلطان، والنور والبرهان، فاطر^(٢) السموات والأرض وما بينهما، والمتقدم بالمن والطول^(٣) على أهلها، قبل استحقاقهم لمثوبته، بالمحافظة على شرائع طاعته. الذي جعل ما أودع عباده من نعمته، دليلاً هادياً لهم إلى معرفته، بما أفادهم من الأبواب^(٤)، التي يفهمون بها فصل الخطاب، حتى أقيموا على موارد الاختبار، وتعقبوا مصادر الاعتبار، وحكموا على ما بطن بما ظهر، وعلى ما غاب بما حضر، واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته، ومتقن صنعتته، وحاجة متزاي^(٥) خلقه ومتواصله إلى القوم^(٦) بما يلزمه ويصلحه، على أت له بارئاً^(٧) هو أنشأه، وابتدأه ويسر بعضه لبعض، فكان أقرب وجودهم ما يباشرون من أنفسهم في تصرف أحوالهم،

١ جمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٧٧

٢ فاطر: خالق

٣ الطول: الإنعام

٤ الأبواب: العقول

٥ متزاي: متفرق

٦ القوم: القيام

٧ بارئاً: خالقاً

وفنون انتقلهم، وما يظهرون^(١) علي من العجز عن التأنى^(٢) لما تكاملت به قواهم، وتمت به أدواتهم ن مع أثر تدبير الله وجل وتقديره فيهم، حتى صاروا إلى الخلقة المحكمة، واصورة المعجبة، ليس لهم في شئ منها تلطفيتيمونه، ولا مقصد يعتمدونه من أنفسهم، فإنه قال تعالى ذكره: (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أى صورة ما شاء ركبك). ثم ما يتفكرون فيه من خلق السموات، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والنجوم مسخرات، على مسير من تصارييف الأزمنة التي بها صلاح الحرث والنسل وإحياء الأرض ولقاح النبات والأشجار، وتعاور^(٣) الليل والنهار، ومر الأيام والشهور والسنين التي تخصي بها الأوقات. ثم ما يوجد من دلائل التركيب في طبقات السقف^(٤) المرفوع، والمهاد^(٥) الموضوع، باتساق أجزائه والتتامها، وخرق الأنهار وإرساء الجبال. ومن البايين الشاهد على ما أخبر الله عز وجل به من إنشائه الخلق حدوثه بعد أن لم يكن، متقياً في النماء، وثباته إلى أجله في البقاء، ثم محاره^(٦) منقضيأ إلى غاية الفناء. ولو لم يكن له مفتتح عدد، ولا منقطع أمد، ما ازداد بنشوء ولا تحيفه نقصان، ولا تفاغوت على الأزمان، ثم ما يوجد عليه منفعتة من ثبات بعضه لبعض وقوام كل شئ منه بما يسر له في بدء استمداده، إلى منتهى نفاذه، كما احتج الله عز وجل على خلقه، فقال: (أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) وقال عز وجل: (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام). وكل ما تقدم من الإخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته في سمواته التي بنى، وأطباق الأرض التي دحا^(٧)، وآثار صنعه فيها برأ، وذراً^(٨)، ثابت في فطر العقول حتى يستجر أولى الزيغ ما يدخلون على انفسهم من الشبهة فيما يجعلون له من

١ يظهرون: يطلعون

٢ التأنى: الترفق

٣ تعاور: تداول

٤ السقف المرفوع: السماء

٥ المهاد الموضوع: الأرض

٦ محاره: رجوعه

٧ دحا: بسط

٨ برأ وذراً: خلق

الأضداد، والأنداد، جل عما يشركون. ولولا توحيده بالتدبير، عن كل معين وظهير، لكان الشركاء جدراء أن تختلف بهم إرادتهم في الخلق، ولأمكن التخلف فيه من إثبات وإزالة فيخلو من أحد وجهيه، وأيهما كان فيه فالعجز والنقص فيما ذراه وبراه، جل البديع خالق الحق ومالك الأمر عن ذلك، وتعاليلواً كبيراً، كما قال سبحانه: (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا نذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون)".

وواضح أن أحمد بن يوسف تحول بهذا التحميد إلى ما يشبه مقالة من مقالات المتكلمين، فهو يورد فيه الحجج على وجود الله الذي أنشأ العالم وخلق الإنسان في صورة مقدره محكمة، وقد أعطاه من العقل ما يجعله إذا فكر في خلق السموات والأرض يؤمن بأن للعالم إلهاً، لما يجري في أفلاكه من نظام دقيق لا بد له من منظم، أحكم تصاريق الأوقات التي يتم بها صلاح كل حي في الأرض من إنسان وحيوان ونبات كما أحكم صنعة الكون في عالم السماء وعالم الأرض بما مهد فيه من سهول وخط من أنهار وأرسي من جبال. ويتعمق في الدلالة على وجود الخالق البارئ وإنشائه للخلق أنهم يحدثون بعد أن كانوا معدومين وأنهم لا يزالون يرقون في النمو حتى تمتد لهم يد الفناء، فلا بد من محدث لهم، وفرق واضح بينه وبين الحادث، فالحادث له أول وله آخر، أو كما يقول: "مفتتح عدد، ومنقطع أمد" أما المحدث فلا أول له في الزمن ولا آخر. وهو مصدر الوجود وقوامه، وهو مدبره ومصرفه، ويقول إن كل ما ذكره من دلالات على وجود الله ثابت في فطر العقول السليمة، وثابت معه أنه واحد أحد لا شريك له، إلا عند من زاغت عقولهم ممن يجعلون له الأضداد والأنداد كمجوس الفرس الذين آمنوا بأن للعالم إلهين: إلهاً للخير وإلهاً للشر، وكغيرهم ممن جعلوا له ندين أو أكثر، ولو صح ذلك لتفاوتت إرادة الآلهة في الخلق واختلفوا فيه بين الإثبات والإزالة، وبذلك يخلو الخلق من أحد وجهيه، ويتم العجز والنقص على الله فيما برأع عليه من الحدوث ثم العدم أو من الإثبات ثم الإزالة، وعلى هذا النحو يتطور التحميد عند أحمد بن يوسف في رسالة الخميس إلى ما يشبه مبحثاً كلامياً في الدلالة على وجود الله ووحدانيته وحدوث الخلق وفناء العالم. ونلاحظ أيضاً في هذا التحميد أن أحمد بن يوسف يحاول أن ينمق فيه ما وسعه التنميق وجره ذلك إلى الاتساع باستخدام السجع فيه، وهو لا يطرد في كل صياغات التحميد ولا في بقية الرسالة، ولكنه يكثر، ونحس

كأن ابن يوسف يقصد إليه قصداً، وخاصة حين نراه يسجع بين كلمة وكلمة. ويمضي فيتحدث عن نعمة الله على خلقه بإرسال أنبيائه وتعاقبهم بالنور الساطع والبرهان القاطع مبشرين ومنذرين حتى ختمهم بالرسول صلى الله عليه وسلم، ويصور جهاده في سبيل دعوته ورسالته حتى أعز الله كلمته واستقام دينه ودخل الناس فيه أفواجا. ويتحدث عن حق العباسيين في الخلافة، إذ ورثوها بحكم قرابتهم للرسول صلوات الله عليه، وكانوا أحق بميراثها من جميع آل، وبذلك يخوض في تأييد الدعوة العباسية. وينتقل من ذلك إلى تأييد الدعوة للمؤمنين بادئاً بتقرير موقفه من الأمين ومسترسلاً فيما ينبغي على شيعته الخراسانيين من مواصلتهم نصرته. ويفيض في وعظهم وما ينبغي عليهم من مجاهدة أعدائهم وأهوائهم ومن الشكر للمؤمن الذي يحوطهم برعايته لما فيه خيرهم ورشدهم والذي يتتوى جزاءهم بالحسنى وحملهم على الطريقة المثلى.

وطلب إليه الحسن بن سهل حين ولاه المأمون وزارته بعد قتل أخيه الفضل سنة ٢٠٢ للهجرة أن يكتب رسالة يشكر المأمون فيها على صنعه جبراً لمصابه، فكتب رسالة ضافية^(١)، استهلها بتحميد الله وذكر آلائه واصطفائه محمداً لرسالته بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وتقفيته على آثار الأئمة الراشدين بالمؤمنين. وأخذ يطنب في الثناء على عدله وما منح الرعية عن عطفه، وأشاد باختياره علياً الرضا لولاية عهده ومؤازرة الفضل بن سهل له في رعاية رعيته والقيام بدعوته وقمع أعدائه، حتى حم أجله شهيداً فقيداً من إمامه ومن الخاصة والعامة. ويتجه إلى شيعته وشيعة الحسن بن سهل بتصوير حرمة الفضل عند المأمون بعد موته وإكثاره من الترحم عليه. ويشكره بلسان الحسن بن سهل على ما منحه من الوزارة وسنى الرتبة. ويعود إلى بيان ما خص به الفضل في حياته من المنزلة الرفيعة ومن ياسة الحرب ورياسة التدبير وتقليده سيفه وخاتمه وما خصه في وفاته من إكرام ومن حزن ممض وعبرات سائلة ومن حفظ لأصحابه وإقرار خاصته وقواده وعماله وكتابه على مراتبهم وما أولى الحسن أخاه من وزارته وعطفه. ويفيض في التنويه بالمؤمن وقضائه على خصومه شرقاً وغرباً ورحمته بفقراء المسلمين وضعفائهم وما اقترن له من الملك والدين والقدة والعفو، ويشكره عن

الإسلام ونصرته له وعن المساجد وتأسيسها على التقوى وتلاوة القرآن وعن الرسول صلى الله عليه وسلم وحفظه لعترته وآله وعن القواد والأجناد وما رفع من منازلهم ووفر من رواتبهم، وعن الأخلاق وما وطد من شيمها الرفيعة وعن المسلمين وما رعى من شئونهم وهزم من أعدائهم، ويختم الرسالة بالدعاء له دعاء كثيراً: أن يرأب الصضدع وترتق الفتوق به وينكل في أعدائهم.

ولأحمد بن يوسف رسالة في تهنئة عبد الله بن طاهر بقضائه على ثورة عبيد الله ابن السرى بمصر وأخرى في تعنيت بعض العمال على ظلم أنزله ببعض الناس، ولكنها لا تبلغان من التنميق ما بلغته الرسائل السابقة. ومن طريف رسائله الديوانية ما كتب به عن المأمون إلى عمال النواحي في الاستكثار من القناديل بالمساجد في شهر رمضان، وقد جاء فيها^(١):

"فإن في ذلك عمارة للمساجد، وإضاءة للمتجهدين^(٢) وأنساً للاسبلة^(٣)، ونفياً لمكامن الريب، وتنزيهاً لبيوت الله عز وجل عن وحشة الظلم"

وكان يكتب أحياناً إلى المأمون في بعض الشئون، فيتلطف غاية التلطف، وما يروى له من ذلك أن طلاب الصلوات كثروا بباب المأمون، وتأخرت صلاتهم، فلما طال ذلك عليهم كتب إليه^(٤):

"إن داعى ندائك، ومنادى جدواك^(٥)، جمعاً ببابك الوفود، يرجون نائلك^(٦) للعهد، فمنهم من يمت بحرمة، ومنهم من يدلى بسالف خدمة وقد أجحف بهم المقام، وطالت عليهم الأيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعشهم بسبيه^(٧)، ويحقق حسن ظنهم بطوله^(٨)، فعل إن شاء الله".

١ النصاعتين للعسكري ص ٢٣ وزهر الآداب ١٣٢ / ٢

٢ المتجهدين: من التهجد وهو الصلاة في جوف الليل

٣ السابلة: السائرون في السبل ولا مأوى لهم

٤ زهر الآداب ١٣١ / ٣ ومعجم الأدباء ١٦٩ / ٥

٥ الجدوى: العطية والنوال

٦ النائل: النوال والعطاء

٧ السيب: العطاء

٨ الطول: الإنعام

فوقع المأمون في كتابه: الخير متع، وأبواب الملوك مغان^(١) لطالبي الحاجات ومواطن لهم. وأمره أن يكتب أسماء من بالباب ومراتبهم ليصير لكل شخص منهم قدر استحقاقه.

وكان كثيراً ما يهدى إلى المأمون هدايا في أيام النيروز^(٢)، ويرفقها برسالة رقيقة، تحمل سطرًا أو سطرين من النثر وبعض أبيات من الشعر، فمن ذلك أن أهده مرة - فيما يقول الرواة - سقط ذهب فيه قطعة عود هندي في طوله وعرضه، وكتب معه^(٣):

"هذا يوم جرت فيه العادة، بإتحاف الناس السادة، وقد قلت:

على المرء حقٌّ وهو لا شك فاعلهُ وإن عَظُم المولى وجلَّتْ فواضلهُ^(٤)

ألم ترنا نُهدى إلى الله مالهُ وإن كان عنه ذاغنى فهو قابله

ولو كان يُهدى للجليل بقدره لقصّر عنه البحر يوماً وساحله

ولكننا نُهدى إلى من نُجلُّه وإن لم يكن في وسعنا ما يشاكله"

وروت كتب الأدب كثيراً من الرسائل الإخوانية لأحمد بن يوسف، وهو فيها يتروى ويتأنق في اختيار لفظه، مع حسن البايں ورصانة القول، من ذلك ما كتب به إلى بعض إخوانه يهنئه بمولوده له^(٥):

"بارك الله في مولودك الذي أتاك وهنأك نعمته بعطيته، وملاك^(٦) كرامته بفائدته، وأدام سرورك بزيادته، وجعله باراً تقياً، ميموناً مباركاً زكياً، ممدوداً له في البقاء مبلغاً غاية الأمل مشدوداً به عضدك، مكثراً به ولدك، مداً به سرورك مدفوعاً به الآفات عنك، مشفوعاً بأكثر العدد، من طيب الولد".

١ مغان: منازل ومواطن

٢ النيروز: من أعياد الفرس وهو أول يوم عندهم في السنة

٣ صبح الأعشى ٢/ ٤٢٠

٤ الفواضل: النعم

٥ جمهرة رسائل العرب ٣/ ٤٨٣

٦ ملاك: متعك

وهو دائماً في التهنية بالمواليد يتحدث عن أنها نعمة من الله وهبة، ويدعو للأب أن تقر عينه بابنه، وأن يبارك الله له فيه، ويجعله باراً بأبويه، تقياً زكياً ميموناً سعيداً، وأن يشد به أزر الوالد ويكثر من أحفاده: أولاد هذا الولد الصالح. وله من تهنية لأحد إخوانه بإبلاله من مرضه^(١):

"قد أذهب الله وصب العلة ونصبها"^(٢)، ووفر أجرها وثوابها، وجعل فيها إرغام العدو بعقباها"^(٣)، أضعاف ما كان عنده من السرور بقبح أولاهها".

وتأنقه في العبارة واضح لا بما يجري فيها من سجع فحسب، بل بما يوفر أيضاً في أوائلها من ترادف النصب مع الوصب والثواب مع الأجر، ليستتم الجمال الصوتي. ومن رسائله في الشكر^(٤):

"من اتسع في الأفضال"^(٥) اتسعت به اظلقوال من شاكر مثن، ومادح مطر، ولسنا نصفك بما يعن لنا، ويذل على ألسنتنا، مما يتقرب به ذو الرغبة، ويضرع به ذو الهربة، لاستئزال مرغوب، او استئجاز مطلوب، ولكننا نطق عن سيرتك بإفصاح، ونبين عنها بلايضاح، فنكف شغب الكائد، ونطيل نفس الحاسد".

وسجعه المطرد في هذه الرسالة ليس معناه أنه كان يسجع دائماً فهو يسجع حيناً، وحيناً لا يسجع، ولكنه يعنى كما قلنا بالترادف بين اللفاظ والعبارات، على نحو ما نرى في هذه الرسالة إذ تلا كلمة "شاكر مثن" بكلمة "مادح مطر" وهى بنفس معناها، ليحكم لتعبيره التلاؤم الصوتي والتعادل الموسيقي، وهو ما كان يسميه القدماء بالازدواج، ودائماً تتردد أساليبه بينه وبين السجع على شاكلة قوله في المديح^(٦):

١ العقد الفريد ٤ / ٢٣٩

٢ النصب: التعب الشديد، والوصب: الوجع

٣ عقباها: / عاقبتها

٤ الروقا للصولي (قسم الشعراء) ص ٢٣٣

٥ الأفضال: النعم والأيادي

٦ الصولي ص ٢٣٢

"لقد أحلك الله من الشرف أعلى ذروته، وبلغك من الفضل أبعد غايته، فالآمال إليك مصروفة، والأعناق إليك معطوفة. عندك تنتهى الهمم السامية، وعليك تقف الظنون الحسنة، وبك تثنى^(١) الخناصر، وتستفتح أغلاق المطالب، ولا يسترث^(٢) النجح من رجائك، ولا تعرفه النوائب في ذراك^(٣)".

وعلى نحو ما كان يتفنن في المدح والثناء كان يتفنن في الذم والهجاء، وكان أحياناً يخز فيه وخز الإبر أحياناً يطعن طعنات مدمية، من ذلك ما كتب به إلى آل سعيد بن سلم^(٤):

"لولا أن الله عزَّ وجلَّ ختم نبوته بمحمد صلى الله عليه وسلم وكتبه بالقرآن لبعث لكم نَسَبِيَّ نِقْمَةٍ، وأنزل فيكم قرآن غَدْر، وما عَسَيْتُ أن أقول في قوم: محاسنهم مساوى السفلة، ومساويهم فضائح الأمم، وألستهم معقولة بالعِي، وأيديهم معقودة بالبخل، وأعراضهم أغراض الذم، وهم كما قال الشاعر:

لا يكثرون وإن طالَّتْ حَيَاتُهُمْ ولا تبِيدُ مخازيهم وإن بادوا

وله معاتبات واعتذارات كثيرة، وكان يعرف في الأولى كيف يتحدث عن رعاية حق الصديق، كما كان يعرف في الثانية كيف يتسع بالحجة والفكرة اللبقة، حتى يستل من صاحبه عفوه ورضاه، من ذلك ما كتب به إلى أحد أصدقائه^(٥):

"أتيتك وافداً بذنوبى على عفوك، واثقاً لعقوقي ببرك، لا مستظهراً عليك بشفيع قدمته، خلا تطولك^(٦) بالعفو عن الإخوان، وتفضلك عليهم بالإحسان، فإن تعاقب فقد حكمت بالمعدلة^(٧) بعقوبتك على نفسى، وإن تجاف عن ذلك فإن الله يعلم ظأن قلبى لم يصرك على قطيعة، وكل

١ تثنى الخناصر: كناية عن أن الآمال تعقد به

٢ يسترث: يستبطئ

٣ الذرا: الكنف والظل

٤ وزهر الآداب ٢/ ١٣٢

٥ جمهرة رسائل العرب ٣/ ٤٥٢

٦ تطولك: تفضلك

٧ بالمعدلة: بالعدل

ذنب كان أصله الاستبطاء لدالة الحرمة، والاستعطاف بمآلة^(١) الخدمة، فهو مما يعد في الحسنات، لا السيئات".

وتدور في كتب الأدب له توقعات طريفة كان يوقع بها على رقاع الشكوى. وزكّبت بعض العمال ورسائل الاستمache وبذل المعروف، فمن ذلك ما حكى الرواة من أن رجلاً غصب آخر ضيعة في أثناء غيابه واستغلها سنوات معدودة، فلما قدم طالبه بضيعته، فاشتكاها قائلاً: الضيعة لي وفي يدي، واطلع ابن يوسف على الشكوى، فوقع عليها بقوله^(٢):

"الحق لا تخلق جدته، وإن تطاولت بالباطل مدته، فإن أنطقت حجتك بإفصاح، وأزلت مشكلها بإيضاح - غير. "لي في يدي" فكثيراً ما أراها ذريعة الغاصب، وحجة المغالب - وفر حَقك عليك، وسبق بلا كد إليك، وإن ركنت من البائن إليها، ووقفت عن الاحتجاج عليها كانت حجته بالبيئة أعلى، وكان بما يدعيه أولى، إن شاء الله".

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور بلاغة أحمد بن يوسف وكيف أنها كانت تعتمد على غزارة في الفكر وبراعة في الأداء وهي براعة يتقدم بها من سبقوه من كتاب الدواوين في القرن الثاني الهجري تقدماً واسعاً وخاصة في الرسائل السياسية، إذ تأنق في ألفاظها وعباراتها تأنقاً جعله يتخللها بالسجع، فإن لم يواته تخللها بالازدواج والترادف الصوتي، وبذلك أسبغ عليها ضرراً من الجمال المويقي لم تكن مألوفة قبه إلا في بعض الرسائل الإخوانية وبعض التوقعات، على نحو ما مر بنا في الفصل السابق عند ابن سيابة وجعفر بن يحيى البرمكي. ولا ننسى سهل بن هرون، فقد كان يعنى مثله بازدواج والترادف والموسيقى غير أن ابن يوسف هو الذي أعد هذا الأسلوب وما طوى فيه من سجع ليشيع في الكتابات الديوانية.

١ مآلة: صلة

٢ جمهرة رسائل العرب ٤/ ٤٥٨

عمرو^(١) بن مسعدة

كان جده الأعلى صولاً أحد ملوك جرجان، وكان من الترك الذين اعتنقوا المجوسية وتشبهوا بالفرس، وقد اعتنق الإسلام في زمن بنية أمية، ودخل ابنه سعيد في الدعوة العباسية، فلما نجحت صارت له منزلة في الدولة إذ كان من دعاة الناهيين، ولم يلبث خالد البرمكي أن استخلص ابنه مسعدة للكتابة بين يديه في وزارته للسفاح الصمنور، وظل يعمل في دواوين الأخير حتى قلده وزيره أبو أيوب المورياني رئاسة ديوان الرسائل، ويولد له ابنه عمرو، فيعنى بتأديبه حتى يصلح للكتابة في دواوين الدولة. ويظهر أنه مضى يتثقف ثقافة عربية وإسلامية واسعة، حتى غدا لسناً فصيحاً، بل لقد غدا شاعراً ينظم الشعر، كما غدا يحسن شئون الفقه مما يتصل بالخراج، ووقف على العلوم الرياضية، وما يتصل بها من السحاب مما كان يشغفه الكتاب، كما وقف على آداب الفرس وكتاباتهم في السياسة والأخلاق وتدير الحكم ن وربما وقف أيضاً على شيء من الفلسفة اليونانية والحكمة الهندية. وكل تلك كانت أدوات ترشح الشخص لكي يعمل في الدواوين لعصره، ويتقن العمل فيها، ويظفر بما يريد من الإعجاب والترقى في المراتب السنية.

وما نصل إلى زمن الرشيد والبرامكة حتى نجد جعفر بن يحيى البرمكي يستخلص عمراً لنفسيه، ويتخذه كاتباً للتوقيع بين يديه، إذ حدث عن نفسه قائلاً:

"كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيى فرفع إليه غلمانه ورقة يستزيدونه في روايتهم، فرمى بها إلي، وقال: أجب عنها، فكتبت: قليل دائم خير من كثير منقطع. فضرب بيده على ظهرى وقال: أى وزير فغى جلدك!". وأفادع عمله مع جعفر في التوقيعات إفادة واسعة، إذ كان جعفر يعنى - كما قدمنا - بتنميق عباراته والاقتصاد فيها أشد ما يكون الاقتصاد، فطبع بطوابعه البلاغية على نحو ما سنرى عما قليل.

١ انظر في ترجمة عمرو بن مسعدة معجدم الأدباء ١٦/ ١٢٧ ووفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٤٩٢ وتاريخ بغداد

للخطيب البغدادي ١٢/ ٢٠٣ وزهر الآداب ٣/ ٢٤٩.

ونتراه بعد ذلك متصلاً بالفضل بن سهل القائم على تدبير شئون المأمون حين كان يحكم من مرو والولايات الشرقية، وقد اتخذه كما مر بنا في غي هذا الموضع وزيراً له وأسلم إليه مقاليد الحكم، فما زال بالأمين حتى قضى عليه كما قدمنا، وباع الناس المأمون بالخلافة، وظلوا جميعاً بمرور حتى سنة ٢٠٢ للهجرة، فبارحها قاصدين إلى بغداد، وقتل الفضل في الطريق، كما أسلفنا. وإنما ذكرنا ذلك لما نظنه من أن عمرو بن مسعدة إذا كان عمل في دواوين الفضل فلا بد أن يكون عمل بها في مرو مثله مثل أحمد بن يوسف، وكأن الفضل أعجب به، فأدناه منه واصطحبه معه هناك. وعاد على بغداد، فعمل في دواوين أخيها الحسن وزير المأمون أو بعارة أدق عمل في دواوين اتلخلافة، ووقع من نفس المأمون موقفاً حسناً فعهد إليه أحياناً تفتيش الولايات، وما زال يعجب به وببلاغته، حتى إذا رفع أحمد بن يوسف إلى مرتبة الوزارة أقامه على ديوان الرسائل، وكان يأنس له ويستطيب حديثه، فلما أخذ في غزو الروم كان يستصحبه في غزواته. ولعظم منزلته عنده ظن الشعراء أنه استوزره، وذكر ذلك في بعض مديحه له، إذ يقول:

لقد أسعد الله الوزير ابن مسعدة وبث له في النسا شكراً ومحمداً

وكان جواداً ممدحاً، كما كان فاضلاً نبلاً حميد العشرة محبباً إلى معاصريه، وما توافى سنة ٢١٧ للهجرة حتى يلبي نداء ربه بأذنه في غزوة مع المأمون. ويروى أنه لما مات رفعت إلى المأمون رقعة فيها أنه خلف ثمانين ألف ألف درهم، فوقع على ظهرها:

"هذا قليل لمن اتصل بنا، وطالت خدمته لنا، فبارك الله لولده فيما خلف وأحسن لهم النظر فيما ترك".

وكان عمرو بن مسعدة يروع معاصريه ببلاغته، وهى تعد امتداداً لبلاغة جعفر بن يحيى البرمكي، تتصف بصفتين أساسيتين بارزتين هما الإيجاز الدقيق والوضوح البالغ، وهما نفس الصفتين اللتين امتازت بهما بلاغة ابن مسعدة، أما إيجاز فقد بلغ منه أنه كان يضرب به المثل فيه، كما كان يضرب بجعفر بن يحيى من قبله، وكان يقول للكتاب: إذا استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا. وكأنها استقر ذلك في نفس عهمرؤ فإذا هو يحيل كتبه في مختلف

الأغراض إلى ما يشبه التوقعات اختصاراً واقتصاداً في القول. وأما الوضوح فقد كان جعفر شديد الكلف به، وكثيراً ما كان يوصي به الكتاب من حوله، ومر بنا في الفصل الماضي وصف ثمامة بن أشرس المعتزلي لبلاغته ومدى ما كان يجري فيها من بيان ووضوح وإيجاز شديد، ويروى أن الفضل ابن سهل وصف بلاغة ابن مسعدة فقال: "هو أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثل كتبه فإذا رامها تعذرت عليه"^(١). وهذا كما قيل لجعفر بن يحيى: ما حد البلاغة؟ فقال: التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها، فإذا رامها استصعبت عليه.

وليس هذا كل ما أخذ عمرو بن جعفر، فقد كان جعفر يتأنق في اختيار لفظه، حتى لينمقه أحياناً بالسجع الرشيق، فحاكاه عمرو في تنميقة وتأنقه وإشاعة السجع أحياناً في كلامه، وخاصة غذا كان موجزاً وطال نظره فيه، إذ كان لا يزال يبحث عن اللفظة الملائمة التي تروق في السمع، كما يبحث عن المعنى الدقيق، فالكتابة عنده وخاصة إذا اتجه بها إلى الحسن بن سهل أو إلى المأمون أو كلفاه بالكتابة عنهما لم تعد شيئاً يجري عفو الخاطر، بل أصبحت بحثاً بأدق ما تدل عليه كلمة بحث، بحثاً في استقطار المعاني ن بحيث لا يفوت المعنى على إيجازه الدلالة الواضحة ابينة عن طائفة واسعة من الأفكار، وبحيث لا يفوت الألفاظ حمل المعنى وأداءه أداءً يخلب الألباب. وزلعل من الخير أن نسوق طائفة من رسائله نستشف منها خصائصه البلاغية، فمن ذلك ما كتب به إلى الحسن ابن سهل يستتم صنائعه عنده^(٢):

"أما بعد فإنك ممن إذا غرس سقى، وإذا أسس بنى، ليستتم تشييد أسسه، ويجنى ثمار غرسه، وبناؤك عندي قد شارف الدروس^(٣)، وغرسك مشف^(٤) على اليوس، فتدأك بناء ما أسست، وسقى ما غرست، إن شاء الله".

١ الصناعتين ص ٦١

٢ معجم الأدباء ١٦ / ١٣٠

٣ الدروس: الإماء

٤ مشف: مشرف

وواضح تأنقه في الكتاب وتنميته، حتى ليبينه على السجع، وواضح أيضاً تدقيقه في اختيار الألفاظ، وأنه لا يعمد إلى الإطناب، إنما يعمد إلى الاقتصاد، مؤدياً بصورتين كل ما في نفسه، فصنّاع الحسن عنده تشبه بناء، وضع أساسه، ولا بد من متابعة الإنفاق عليه حتى يرتفع في الجو وتقوم أركانه، أو هي تشبه غرساً، لا بد له من تعهد بالماء والتربية حتى يشتد ويؤتي ثماره. ويقول إن الأساس قد أشرف على الامحاء والغرس قد أشرف على الذبول فلا تضمن بالنفقة والتعهد عليهما حتى لا يضيع ما أنفقت وتعهدت أولاً. رأيت كيف أننا حين نعمد إلى فهم كلام ابن مسعدة نضطر إلى شئ من البسط والإطناب، وكأننا بإزاء صياغة تشبه صياغة الشعر الغنائي المركزة التي يثقلها ما تحمل من معان كثيرة في عبارات مسرفة في الإيجاز. ومع ذلك فالألفاظ واضحة غاية الوضوح، ولكنها مع وضوحها تحمل معاني غزيرة، مع قلة عدد الحروف والكلمات ومع سهولة الألفاظ وخفتها في النطق.

وقال أحمد^(١) بن يسوسف: "دخلت على المأمون وفي يده كتاب، وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة، ويصعد فيه بصره ويصوبه، فالتفت إلى وقد لحظني في اثناء قراءته للكتاب، وقال: يا أحمد أراك متفكراً فيما تراه مني! قلت: نعم، وقى الله أمير المؤمنين من المكاره وأعاذه من المخاوف، قال: لا مكروه إن شاء الله، ولكني أقرأ كتاباً وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقول في البلاغة، فإنني سمعته يقول: البلاغة التباعد من الإطالة والتقرب من البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى. وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على هذه البلاغة حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة إلينا، ورمى به إلى وقرأته، فإذا فيه:

"كتابي إلى أمير المؤمنين، ومن قبلي من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم، وانقياد كفاه تراخت أعطياتهم، واختلت لذلك أحوالهم، والتأثت^(٢) معه أمورهم".

١ انظر وفيات الأعيان ١/ ٤٩٤ وقارن بزهر الآداب ٣/ ٢٤٩ والعقد الفريد ٢/ ٢٧٢.

٢ التأثت: اضطربت

فلما قرأته قال: إن استحسانى إياه بعثنى أن أمرت للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محله في صناعته. وفي رواية أخرى أنه قال لابن يوسف: لله در عمرو ما أبلغه! ألا ترى إلى إدماجه المسألة في الإخبارن وإعفائه سلطانه من الإكثار".

ولا ريب في أن عمراً تعب طويلاً في كتابة هذا الكتاب الموجز، حتى يقع على العبارات القليلة التي تؤدي إلى المأمون امتعاض القواد والجند من تأخر رواتبهم، وقد أخذ يحتال لإنبائه بهذا الخبر بحيث لا يضيق بهم وبحيث لا يظن أنهم عمدوا إلى شغب أو ما يشبه الشغب، فذكر أولاً أنهم مذللون له منقادون، وأنهم مستمسكون بعري طاعته استمساكاً يستغرق قلوبهم كأحسن ما يكون استمساك جيش بطاعة خليفته، ثم أتبع ذلك بتأخر أرزاقهم ورواتبهم حتى أجهدهم ما تحملوه من هذا التأخر وحتى اضطربت أمورهم، ومثلهم - مع طاعتهم وانقيادهم - حرى أن يسد اختلالهم وأن يرعى لهم وفأؤهم - فتعجل رواتبهم وأرزاقهم. وكان للكتاب أثر بالغ في نفس المأمون إذ أمر أن تصرف للجند والقادة في الحال أعطياتهم، لا لشهر ولا لشهرين بل لسبعة أشهر متتابعة. ويقال إنه أمر بأن يعطى لعمرو أيضاً راتبه لثمانية أشهر جزاء وفاقاً لحسن عرضه للمسألة ودقة تلطفه في إيرادها وتصويرها.

ويروى صاحب^(١) زهر الآداب أنه قدم على المأمون رجل من أهل الشام على عدة سلفت له منه بتوليته بلدجه، فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون بما وعده به، فقصد عمرو بن مسعدة، وعرض عليه المسألة، وسأله إيصال رقعة إلى المأمون بها، فقال له: اكتب بما شئت، فإنى موصله. فتوسل إليه أن يتولى هو كتابة الرقعة عنه، حتى يكون له فضلان، فكتب عمرو:

"إن رأى أمير المؤمنين أن يفك أسر عدته من ربيعة^(٢) المطل بقضاء حاجة عبده، والإذن له بالانصراف إلى بلده، فعل موفقاً".

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمراً، فأطلعاه عليها وجعل يعجب من حسن لفظها وإيجاز المراد فيها، فقال له عمرو: فما نتیجتها يا أمير المؤمنين؟ قال "الكتابة له في هذا لا وقت بما سأل، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه، وبجائزة تفي دناءة المطل".

١ زهر الآداب ٤/ ١٥٨

٢ ربيعة: عروة

وأكبر الظن أن المأمون لم يستحسن كلام الرقعة لدقة إيجازها وتعبيرها السريع عن مقصودها فحسب، بل استحسنها أيضاً للوصرة الماثوثة فيها، وكان ابن مسعدة كثيراً ما يعنى بالتصوير في كتابته على نحو ما مر بنا في رسالته للحسن ابن سهل. وبذلك تحول فن الرسائل عنده إلى عبارة موجزة كعبارات التوقيعات وإلى صور نادرة تستهوى القلوب بطرافتها ودقتها في التعبير عن المعنى الذي يريد تجسيمه. وكان يضيف إلى ذلك رقعة في الشعور، هي رقعة الكاتب المتحضر الذي أرفه ذوقه، والذي عودته آداب اللياقة الاحتياط فيما يورده على سمع الخليفة والوزير، بحيث ينال إعجابه واستحسانه. ويروى صاحب المثل السائر^(١) أن رجلاً بني ضبة ضرع إليه أن يشفع له عند المأمون في الزيادة لمنزلته وراتبه المقجر له، فكتب إلى المأمون مستشفعاً له:

"أما بعد فقد استشفع بى فلان يا أمير المؤمنين - لتطولك^(٢) على - في إلحاقه بنتظرائه من الخاصة فيما ترزقون به، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى في مراتب المستشفعين، وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته، والسلام".

وأعجب المأمون بدقة عرضه لشفاعته وإخراجه لها في معرض التعريض، تلطفاً، وإشارة من طرف خفى إلى حرمة منه، وما يختصه بالعطف والخطوة عنده. وبذلك كانت أوكد وسيلة وأوثق ذريعة لإجابة طلبه وشفاعته، مما جعل المأمون يوقع على الكتاب بقوله: "قد عرفنا توطنك له، وتعريضك لنفسك، وأجبنك إليهما، ووافقناك عليهما".

وكان إيجازه المفرط مع دقته في أداء المعاني يروع المأمون روعة شديدة، ويروى أنه أحب يوماً أن يرى مدى مقدرته في هذا الإيجاز، فأمره أن يكتب إلى بعض العمال في العناية بشخص والاهتمام بأمره، وأن يوجز كتابه ما أمكنه، بحيث لا يتجاوز ما يكتبه سطرًا واحدًا، فكتب^(٣):

"كتابى إليك كتاب واثق، بمن كتب إليه، معنى بمن كتب له، ولن يضيع بين الثقابة والعناية حاملة، والسلام".

١ المثل السائر ص ٣٩١

٢ تطولك: تفضلك

٣ وفيات الأعيان ١/ ٤٩٣.

ولا ريب في أن هذا الكتاب القصير - بل المفرط في القصر - يصور مدى ما كان يبذل ابن مسعدة من جهد عنيف في جمع المعاني الكثيرة وتركيزها في معنى يؤديها أجمل ما يكون الأداء، سواء بما يختار من لفظ أنيق أو صورة بديعة، وكأنه لا يصوغ كلاماً، وإنما يقطر من الكلام شذى فائحاً شديداً التأثير في قارئه وسامعه.

وعلى هذا النحو تحولت الكتب عند ابن مسعدة إلى كلمات قصار، ككلمات التوقيعات، بل لعلها أشد قصراً، وأقوى منها حدة، وما نشك في أنه تأثر في هذا الاتجاه بالحكم الكثيرة التي ترجمت في عصره، على نحو ما نرى في الأدب الصغير والكبير لابن المقفع، وكأنه أد أن يجعل كتبه أو على الأقل طائفة منها حكماً وأمثالاً تدور على ألسنة الكتاب والأدباء. وروى له ابن خلكان رسالة طويلة مسجوعة كتب بها إلى بعض الرؤساء، وقد أهمه وأحزنه زواج أمه، لينفس عنه، وما إن قرأها حتى سحره بيانه واعتذاره عن أمه وذهب عنه الهم والحزن، وشك ابن خلكان في الرسالة وقال إنها تنسب إلى ابن العميد، وهو محق في شكه، لسبب بسيط، هو طولها الذي لا نألفه عند ابن مسعدة، فقد كان يقبض يده عنه ولا يبسطها إلا على حروف معدودة محكمة.

ابن^(١) الزييات

هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، اشتهر بابن الزييات، لأن جده أباناً كانا يجلب الزيت من موطنه إلى بغداد متجراً فيه، وأصله من مقاطعة جيل جنوبى بغداد ومن قرية تسمى الدسكرة، وقد دفع ابنه عبد الملك إلى احتراف التجارة، وجد فيها حتى صار من تجار الكرخ^(٢) المياسير، وولد له محمد سنة ١٧٣ ونشأ يحب الأدب، فأقبل ينهل منه، كما ينهل من علوم اللغة ومن ينابيع الآداب الأجنبية الشائعة في عصره، حتى شدا الشعر ونبغ فيه كما نبغ في النثر. وحاول أبوه أن يصرفه عن هذا الاتجاه إلى التجارة المربحة فكان يصده، ويلزم الأدب وطلبه، ويلزم الدواوين محاولاً أن يلفت من فيها إلى مهارته الأدبية، وقال له أبوه يوماً ص: "والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك وليضررك، لأنك تدع عاجل المنفعة وما أنت فيه مكفى، ولك ولأبيك فيه مال وجاه، وتطل بالآجل الذي لا تدرى كيف تكون فيه، فقال: والله لتعلمن أينما ينتفع بما هو فيه: أنا أم أنت، ثم شخص إلى الحسن بن سهل، فامتدحه بقصيدة، فأعطاه عشرة آلاف درهم، فعاد بها إلى أبيه فقال له أبوه: لا ألومك بعدها على ما أنت فيه". ويقال إنه لما مدح ابن سهل ووصله بالدراهم المذكورة مثل بين يديه، وأنشده:

لم أمتدحك رجاء المال أطلبه لكن لتلبسنى التحجيل والغررا^(٣)
وليس ذلك إلا أننى رجل لا أطلب الورد حتى أعرف الصدر^(٤)

١ انظر في ترجمة ابن الزييات الأغاني (طبعة الساسى) ٤٦/٢٠ والفهرست ص ١٧٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى

٢/ ٣٤٢ والفخرى ص ١٧٥ والمسعودى ٣٩/٤ والطبرى ٣٤٣/٧ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط ص ١٤٢،

٤١٠ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٧٠/٢

٢ الكرخ: محلة الأسواق والتجار ببغداد

٣ التحجيل: بياض في قوائم الفرس. الغرر: جمع غرة، بياض في وجهه. والاستعارة هنا واضحة

٤ الورد: ورود الماء. الصدر: اصدور والرجوع عنه

يشير بذلك إلى مأربه من مديحه، وأنه لم يمدحه طلباً للمال، وإنما مدحه طلباً لتعيينه كاتباً بالدواوين، وعينه الحسن بن سهل، فحقق له أملاً طالما كان يراوده.

ومضى ابن الزيات يختلف إلى الدواوين وهو يتابع مدارسته لعلوم اللغة والنحو، ويظهر أنه تزود منها زاداً وافراً، فقد ذكر الرواة أن أبا عثمان المازني حين قدم بغداد كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في مسائل علم النحو، فإذا اختلفوا في مسألة يقع فيها الشك قال لهم: ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب - يعنى ابن الزيات - واسألوه واعرفوا جوابه، وكانوا يفعلون، ويعرضون ما يجيب به على المازني، فيرى أنه الصواب الذي يرتضيه، ويشرحه لهم ويقفهم عليه.

وعلى نحو ما كان عالماً بالغة والنحو كان شاعراً بارعاً، ومرت بنا في حديثنا عن الشعر مرثية لزوجته، وهى من روائع المراثى، وله وراءها مراثٍ أخريف بها وأشعار كثيرة، كونت له ديواناً نشر في القاهرة، ومن يرجع إليه يجد شاعريته فياضة، كما يجد الشعر مذلاً له في المواقف المختلفة التي قد يصعب فيها على غيره ولا يسلس قياده. ويقال إنه لما وثب إبراهيم بن المهدي على الخلافة حين عقد المأمون لعلى الرضا البيعة بولاية العهد، وتطورت الظروف على نحو ما قدمنا ولم يتم أمره استتر خوفاً من المأمون وانتقامه، وظل مستخفياً سنوات لا يعرف موضعه، حتى غذا ظهر وعفا عنه المأمون طالبه التجار بأموالهم التي كان قد اقترضها منهم فكان يقول: إنما اخذتها للمسلمين وأردت قضاءها من فيئهم والأمر الآن إلى غيرى، وكان قد اقترض من عبد الملك بن أبان عشرة آلاف درهم، وكان إذا طالبه بماله لقيه بنفس الجواب، فنظم ابنه محمد قصيدة يصور فيها ثورته على المأمون مقارناً بينها وبين ثورة الأمين وما ناله من القتل جزاء غدره ونكثه، حتى يوغر صدر المأمون عليه، ويطير به طيرة سقوطها. ومضى بالقصيدة إلى ابن المهدي، فأنشدها له، وقال: والله لئن لم تعطى المال الذي اقترضته من أبي لأوصلن هذه القصيدة إلى المأمون، ففزع إبراهيم وجزع، وقال له متوسلاً: خذ منى الآن بعض المال، واجعل الباقي أقساطاً، ولا تظهر القصيدة ووفى كل منهما لصاحبه.

وما زال ابن اليزات يعمل في الدواوين حتى ولى مقاليد الخلافة المعتصم، فقربه منه ولم يلبث أن استوزره، ويقال إنه طلب حينئذ أن لا يلبس القباء^(١) على عادة الوزراء وأن يلبس الدراعة^(٢) ويتقلد عليها سيفاً بحمائل، فأجيب إلى طلبه، ويحس بإقبال الدنيا عليه، فيفتح أبوابه للشعراء، ويجزل لهم في العطاء، ومن أهم مداحه كما مر بنا أبو تمام، وأنشدنا في غير هذا الموضع بعض أبيات من قصيدته التي صوف فيها قلمه وبلاغته. وكانت قد انعقدت أيما عمله في الدواوين صلة وثيقة بينه وبين الحسن بن وهب، فلما ولى الوزارة قدله ديوان الرسائل، وربما كان الجاحظ أهم أديب توثقت به صلته في وزارته.

وتوفى المعتصم وولى ابنه الواثق، فظل وزيراً له، ولعل من الغريب أن نجده في وزارته لهما جميعاً يعادى أحمد بن أبي دؤاد المعتزلى المشهور، وكان المعتصم جعله قاضى القضاة واتخذاه كما اتخذ ابنه الواثق ناصحاً ومشيراً، ودب التنافس بينه وبين ابن الزيات، حتى انقلب إلى عداوة وتهاج بالشعر، وكان ابن أبي دؤاد يحرض الشعراء على هجائه ويصلهم، ويقال إن بعض الشعراء هجاه بقصيدة عدة أبياتها سبعون بيتاً، فبلغ خبرها ابن دؤاد، فقال:

أحسن من سبعين بيتاً سُدَى جمعك إياهن فغى بيت

ما أحوج الناس إلى مطرة تذهب عنهم وضر الزيت

وكان ابن الزيات لبراعته في الشعر يكيل لهع الصاع صاعين، فاضطربت العداوة بينهما اضطراباً. وكانت في ابن الزيات قسوة شديدة قلما تؤلف في أمثاله من الأدباء الذين رزقوا دقة في الحس، ورهافة في الشعور، ويؤثر عنه أنه كان يقول: "الرحمة خور في الكطبيعة وضعف في المنة"^(٣)، ما رحمت شيئاً قط". وبلغ من قسوته أن اتخذ تنوراً من حديد، وجعل فيه مسامير، ليعذب به المطالبين بالأموال من أرباب الدواوين، وكان في وزارته للواثق، يتجههم للمتوكل، وحاول أن يصرف الخلافة عنه إلى ابن الواثق، وطمح إلى إنفقاذ ذلك بعد وفاته، بينما تحمس ابن

١ القباء: ثوب فارسى قصير.

٢ الدراعة: جبة فارسية

٣ المنة: القوة

أبي دؤاد للمتوكل، فلما ولى الخلافة استوزر ابن الزيات أربعين يوماً ليطمئن، وظل ابن أبي دؤاد يغريه به لينكبه، حتى أصاخ له وقبض عليه وطالبه بالأموال، ولم يلبث أن أدخله التنور الذي صنعه، وقيده فيه بخمسة عشر رطلاً من حديد، وظل به أربعين يوماً يعذب عذاباً شديداً، حتى مات، وكان موته في آخر ربيع لسنة ٢٣٣ للهجرة.

ولم تدر لابن الزيات رسائل كثيرة في كتب الأدب، مع كثرة ما يدور فيها من رسائل موجهة إليه، وية يظهر أنه وكل في وزارته للحسن بن وهب كتابة الرسائل الديوانية والرد عليها، ومن القليل الذي احتفظت به تلك الكتب العهد للوائح على مكة، وقد كتبه بحضرة المعتصم على هذه الصورة^(١).

"أما بعد، فإم أمير المؤمنين قد قللك مكة وزمزم، ترثا أبيك^(٢) الأقدم، وجدك^(٣) الأكرم، وركضة جبريل، وسقيا إسماعيل وحفر عبد المطلب، وسقاية العباس، فعليك بتقوى الله تعالى والتوسعة على اهل بيته".

وابن الزيات يشير في هذا العهد المقتضب إلى قصة هاجر زوج إبراهيم عليه السلام حين ولدت ابنها إسماعيل منه، وغارت زوجة الثانية سارة، واضطرته أن ينزلها منزلاً بعيداً عنها، فأنزلها بوادي مكة الجذب، وذكر ذلك القرآن الكريم في قوله جل شأنه على لسان إبراهيم: (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم). وأعياهما أن يجدا ماء يستقيان منه، وبينما هاجر قد أخذها اليأس من وجوده إذا جبريل يهبط راکضاً على موضع، لا تلبث بئر أن تتفجر منه، هي بئر زمزم، فتستقي منه هاجر وإسماعيل. وتمر الأيام فتطمر البئر وتمحى معالمها وتظل مطمورة، حتى يلقي في روع عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحفرها، وما إن ضرب بمعوله فيها حتى فاض الماء، واتخذها لسقاية الحجيج، وورث ابنه أبو طالب شرف هذه السقاية بعده وورثها عنه العباس أخوه جد العباسيين. وإلى كل هذه القصة

١ زهر الآداب ٤/ ١٦٠

٢ يريد بأبيه الأقدم: إسماعيل عليه السلام

٣ يريد بجده الأكرم: إبراهيم الخليل

يشير ابن الزيات في عهد الوثائق، وكأننا نلتقى عنده بأسلوب ابن مسعدة المبني على الإيجاز والاقتصاد في القول من جهة، وعلى التأنيق في التعبير من جهة ثانية، تأنيقاً يجره إلى السجع.

ويظهر أن ابن الزيات لم يكن يعتمد إلى السجع دائماً، وكأنما كان يرى فيه مبالغة في التكلف، فقد احتفظ له ابن عبد ربه برسالة إلى أحد العمال تخلو من السجع، وهي تجرى على هذا النمط^(١):

"أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين (كذا) فأنكره، ولا تخلو من إحدى منزلتين، ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ولا يزيل لائمة^(٢): إما تقصير في عملك دعاك للإخلال بالحزم والتفريط في الواجب، وإما مظاهره^(٣) لأهل الفساد ومداهنة لأهل الريب، وأية هاتين كانت منك محله النكر بك وموجبة العقوبة عليك، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة^(٤) والأخذ بالحجة والتقدم في الإعذار والإنذار، وعلى حسب ما أقلت^(٥) من عظيم العشرة يجب اجتهدك في تلافي التقصير والإضاعة، والسلام".

والقصد إلى [أ]جاز واضح في الرسالة ولكنه إيجاز من درجة ثانية غير درجة الإيجاز عند ابن مسعدة، فإيجاز ابن الزيات لا يتحول إلى ما يشبه التوقيعات والحكم والأمثال، إنما هو ضرب من الاقتصاد في التعبير، مع الاتساع في المعنى وبسط أطرافه قليلاً، ليحيط بكل ما يدور في نفس الكاتب، ومع الوفاء برصانة اللفظ وجزالته ومتانته، ومع الدقة في انتخابه واختياره، دون تكلف لجمال صوتي يجر إلى السجع أو إلى الازدواج الذي كان يستخدمه أحمد بن يوسف وسهل بن هرون وأضاربهما من الكتاب، ومما يصور ذلك عنده ما احتفظ به ابن عبد ربه من بعض فصوله مثل قوله^(٦):

١ العقد الفريد ٤ / ٢٤١

٢ اللائمة: اللوم

٣ مظاهره: مساعدة

٤ النظرة: التأجيل

٥ أقلت: نهضت

٦ العنقد الفريد ٤ / ٢٤٠

"إن الله أوجب لخلفائه على عباده حق الطاعة والنصيحة، ولعبيده على خلفائه بسط العدل والرفقة وإحياء السنن الصالحة. فإذا أدى كل إلى كل حقه كان ذلك سبباً لتمام المعونة واتصال الزيادة واتساق الكلمة ودوام الألفة".

فالفكرة تؤدي في عبارة موجزة تلم بأطراف المعنى ولكن دون إسهاب أو إطناب، وجون محاولة لتحقيق اللذة الفنية عن طريق السجع والازدواج وما ينجم عنهما، على شاكلة قوله في فصل آخر^(١):

"إن أعظم الحق حق الدين، وأوجب الحرمة حرمة المسلمين، فحق لمن راعى ذلك الحق وحفظ تلك الحرمة أن يراعى له حسب ما رهاه الله به، ويحفظ له حسب ما حفظ الله على يديه".

والرغبة في الإيجاز والاقتصاد في القول واضحة في هذا الفصل وخاصة في كلماته الأخيرة. ولم تؤثر لابن الزيات رسائل شخصية نثرية، وكأنه كان يقدم الشعر على النثر في هذه الرسائل، لمطاوعته له وسهولته عليه، إذ تروى له كتب الأدب بعض رسائل إخوانية شعرية كان يتبادلها مع بعض أصدقائه وخاصة الحسن بن وهب، وقلما تجاوزت أبياته فيها عدد أصابع اليدين. ويروى أن ابن وهب مرض أياماً ولم يأت به رسوله ولا تعرف خبره، فكتب إليه رسالة شعرية يعاتبه فيها، ورد عليه ابن الزيات برسالة شعرية أيضاً، يعتذر إليه متنصلاً من علمه بمرضه، وطالباً إليه التفضل بصفحة والتطول بعفوه، على هذه الشاكلة^(٢):

ر، وحاشاك أن تكون عليلاً

دفع الله عنك نائبة الدهـ

ك من العذر جائزاً مقبولاً

أشهد الله ما علمت وماذا

تُك حَولاً لكان عندي قليلاً

ولعمري أن لو علمت فلا زَمـ

ر سبيلاً إن لم أجِد لي سبيلاً

فاجعلن لي إلى التعلق بالعُدْ

١ العقد الفريد ٤ / ٢٤٠

٢ أغاني (سشاي) ٢٠ / ٥٥

ويقول صاحب الأغاني إنه كان بليغاً حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب، ويسوق شاهداً على ذلك أنه "جلس يوماً للمظالم، فلما انقضى المجلس رأى رجلاً جالساً، فقال له: ألك حاجة؟ قال الرجل: نعم تدنيني إليك، فأني مظلوم، فأدناه، فقال: أنا مظلوم، وقد أعوزني الإنصاف، قال: ومن ظلمك؟ قال: أنت، ولست أصل إليك فأذكر حاجتي، قال: ومن يحجبك عني وقد ترى مجلسي مبذولاً؟ قال الرجل: يحجبني عنك هيبتي لك وطول لسانك وفصاحتك واطرد حجتك، قال: ففيم ظلمتك؟ قال الرجل: ضيعتني الفلانية أخذها وكيلك غصباً بغير ثمن، فإذا وجب عليها خراج أديته باسمي لئلا يثبت لك اسم في ملكها، فيبطل ملكي، فوكيلك يأخذ غلتها وأنا أؤدى خراجها". وتمضى القصة فتذكر ابن الزيات رد على الرجل ضيعته ووهبه بعض المال ليستعين على عمارتها. وأبو الفرج إنما ساق القصة ليدل على ما شاع عند معاصري ابن الزيات من فصاحته وبلاغته ولسنه وقوة حجته.

خاتمة

تحدثت في هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول عن احياء السياسية وما اتصل بها من قيام الدولة العباسية وبناء بغداد وسامراء واتخاذهما حاضرتين متعاقبتين، كما تحدثت عن غلبة الطوايع الإيرانية على نظم الحكم وما ارتبط بها من دواوين ووزراء وتقاليد مختلفة. وقد مضى العلويون يقاومون أبناء عمهم العباسيين سراً وجهرًا، بينما ضعف شأن الخوارج ضعفاً شديداً. ويعد أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي لدولة بني العباس، ويخلفه المهدي فيقضي على ثورات الخرمية وترتعد فرائص البيزنطيين أمام جيوشه في غير موقعة. ويعقبه ابنه الهادي لمدة قصيرة. ويتولى مقاليد الخلافة بعده أخوه هرون الرشيد، وعصره يعد أزهى عصور الخلافة العباسية، بما شاع فيه من رخاء، وقد محقت جيوشه الخوارج محققاً وسحقت البيزنطيين سحقاً. ويخلفه ابنه الأمين لسنوات قصيرة، ويتولى بعده المأمون، ويقود حركة عقلية واسعة ينتصر فيها للمعتزلة وقولهم بأن القرآن مخلوق، بينما يقضي قواده على كثير من الثورات، ويقلع أظافر البيزنطيين مراراً، ويخلفه أخوه المعتصم فيقضي على ثورة بابك الخرمي، ويدق أعناق البيزنطيين دقاً في عمورية وغير عمورية، ويعقبه ابنه الواثق، وبه يختم العصر العباسي الأول.

وكانت بغداد وسامراء تحفل بالقصور الباذخة وتكتظ بالثراء، وصبت سيول منه في حجور المغنيين والشعراء والعلماء، مما أعد لنهضة واسعة في الفنون والآداب والعلوم، وشاع الترف في الملابس والمطاعم والمشارب كما شاعت أدوات مختلفة للترويح عن النفوس، وكثر الرقيق والجواري وشغف الناس بالغناء وبضروب مختلفة من الظرف وتورط كثيرون في الخمر والمجون. وكان انتصار العنصر الفارسي على العنصر العربي في الثورة العباسية سبباً في أن برز موجة حادة من الشعوبية، ورافقتها موجة حادة من الزندقة، جعلت المهدي ينصب ديواناً لتعقب الزنادقة ومحاکمتهم، ويبعث العلماء للرد على بهتانهم. وتغنى كثيرون بالزهد ورفض الدنيا ومتاعها الزائل، وتعالصت اصوات الوعاظ والقصاص وأخذت تظهر مقدمات التصوف.

وقد حدثت امتزاج جنسي ولغوي وثقافي واسع بين الشعب العربي والشعوب المستعربة. إذ امتزجت به في السكنى والتزاوج وفي الأخلاق والعادات، واتخذت لغته لساناً لهم فترجم به عن ضميرها ومشاعرها وذات نفسها، وسرعان ما استوعبت تلك اللغة الثقافات التي كانت ماثوبة في

هذا المحيط الجديد سواء أكانت هندية أم فارسية أم يونانية أو دينية خالصة. ونشطت الحركة العلمية نشاطاً واسعاً، فشاغ التعليم في الكتابات والمساجد وكثر العلماء في كل فن، وانتشر اقتناء الكتب والمكتبات الخاصة، وترجمت علوم الأوائل إلى العربية من هندية وفارسية ويانية، وأنشأ الرشيد للترجمة داراً كبيرة هي دار الحكمة وألحق بها المأمون مرصداً فلكياً ضخماً. وأخذت توضع منذ أوائل العصر العلوم اللغوية: علوم النحو والتصريف والعروض ووضع أول معجم للعربية، وهو معجم العين المشهور. ونمت المصنفات التاريخية. وصنفت في الحديث النبوى كتب جامعة. وكثرت المصنفات في تفسير القرآن الكريم. ووضعت مذاهب الفقه الساسية: مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعى ومذهب ابن حنبل. وأحكم المتكلمون أصولهم العقيدية وخاصة المعتزلة الذين تعمقوا في المباحث الفلسفية.

وازدهر الشعر، وحذق الشعراء الموالى لغته، واستوعبوا مقوماتها وخصائصها نافذين إلى أسلوب مولد جديد، اعتمدوا فيه على الألفاظ الواسطة بين لغة العامة المبتذلة ولغة البدو الجافية، أسلوب يموج بالجزالة والرصانة حيناً، وحيناً بالعدوبة والنعومة. واصطبغ شعرهم ومعانيه بحكم رقيهم الفكرى بطواع عقلية دقيقة، وقد مكن لها المعتزلة بمباحثهم العميقة وطرقهم في الاستدلال وتوليدات المعاني وتفريعاتها المتشعبة. وظل الشعراء ينظمون في موضوعات الشعر العربى القديمة متطورين بها قليلاً أو كثيراً وبذلك حافظوا على شخصيته الموروثة، مع الوصل بينه وبين حياتهم الاجتماعية والعقلية والحضارية. وقد اضطرم المديح اضطراباً بما صوروا فيه من المثالية الخلقية والبطولات العربية والأحداث الكبيرة وبما أضافوا إلى عناصره البدوية القديمة من عناصر حياتهم الحضارية وملكاتهم العقلية. وتطور الهجاء بما أشاعوا فيه من روح الاستخفاف والسخرية المريرة والفكاهة السامة. وتحولوا بالفخر القبلى إلى فخر شعوبى محتدم. واتسعوا بالثناء. فرثوا المدن المنكوبة والحيوان والطير. وتفننوا في الغزل بنوعية الإباحى والعفيف. وتبذلوا في شعر المجون والخمر. ونظموا كثيراً في الزهد. ونفذوا إلى موضوعات جديدة، إذ أفردوا قصائد لتصوير بعض المثل الخلقية أو تصوير الرياض ومظاهر الحضارة العباسية أو بكاء البصر والتفجع على فقدته أو وصف بعض الغرائز كغريزة الغيرة أو وصف حياة الشظف والبؤس والمسغبة أو نظم بعض الفكاهات والنوادر. واستحدثوا فن الشعر التعليمي ونظموا فيه كثيراً من التاريخ والقصص والمعارف والنحل المختلفة. وأكثروا من النظم على الوزن القصيرة والمجزوءة ونفذوا إلى اكتشاف أوزان المضارع والمقتضب والمتدارك أو الخبب، وإلى أوزان أخرى لم يستخدمها العرب قبلهم، غير أنه لم يكتب لها الشيوخ لنقص

أنغامها بالقياس إلى الوزان الموروثة. وعرفوا وزنًا شعبيًا هو وزن المواليا. وجددوا تجديدًا واسعًا في القوافي ونمط القصيدة، فاستحدثوا المزدوجات والرباعيات والمسمطات، ونظموا صورة تعدد أمًا للموشحات مما يدل على أنها ترجع إلى اصول عباسية.

وأعلام الشعراء في العصر بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام، فأمل بشار فكان فارسى الأب رومى الأم، وكان أكمه، وولد على الرق، ونشأ في البصرة نشأة عربية خالصة، فحذق اللغة وبرع في الشعر، وكان يجالس المتكلمين وأصحاب المقالات الدينية، فاضطرب بين هعذه المقالات وصار إلى الشك ثم إلى الزندقة، واستظهر شعوبية آثمة. وهو يعد زعيم الشعراء المحدثين بما رسم لهم من التمسك بأصول الشعر التقليدية والملاءمة بينها وبين العصر ومجتمعه وحضارته وثقافته. وقد أكثر من الفخر الشعوبى الذميم، وأثر فقدته لبصره واضح في غزله فهو في أكثره غزل حسى يصدر فيه عن الغريزة النوعية صدوراً يزرى بمروءة الرجل الحر الكريم مما جعل الوعاظ يذمونهم ذمًا شديدًا. وأكثر أيضاً من وصف منجالس الخمر والغناء دون رادع من خلق أو دين إذ كان زنديقاً وقتل على الزندقة. وكان أبو نواس فارسى الأب والأم، ونشأ مثل بشار في البصرة، وتحول عنها إلى الكوفة مع شيطان كبير نفث فيه من غيه ومجونه وإثمه هو والبة، ورحل إلى البادية يتزود من ينابيع اللغة الأصيلة وعاد إلى البصرة ولزم مجالس اللغويين والمتكلمين والقصاص والمحدثين وعب من الثقافات الأجنبية عباً. ونزل بغداد وامتدح الرشيد والبرامكة، ورحل إلى مصر وعاد إلى بغداد فاتصل بالأميين. وشعره يجرية في اتجاهين: اتجاه تقليدى في المديح والرثاء واتجاه تجديدى في الهجاء والغزل والمجون والطرديات، وهو أكثر شعراء عصره مجوناً وإفحاشاً فيه. ومع إكثاره من الجهر بالفسق والمعصية يردد اعتماده على عفو الله ومغفرته، وهو - غير منازع - شاعر الخمرية على توالى العصور العربية بما ابتكر في صورها ومعانيها وما أشاع فيها من حيوية دافقة. أما أبو العتاهية فكان نبطياً ونشأ بالكوفة لأب يشتغل بالحجامة، وكان سيئ السيرة في صباه إذ انتظم في سلك المخنثين، وعمل مع أخ له في بيع الجرار وصنعها، واختلف إلى بيئات الرواة واللغويين والعلماء والمتكلمين، ولم يلبث أن أتقن العربية وبرع في الشعر فرحل إلى بغداد ومدح المهدي وتعلق بجارية من جوارى قصره تسمى عتبة ونظم فيها غزلاً كثيراً، ومدح ابنه الهادي والرشيد، ويقبل على الخرم والمجون مفرطاً فيها.

ويحدث انقلاب في حياته، فيتزهد ويلبس اصوف، ويظل متصلاً بالخلفاء والحسن بن سهل وزير المأمون حتى يبرح دنياه. وأشعاره تمثل حياته وما حدث بها من انقلاب فهو في جانب منها يمدح ويتغزل ويصف الخمر، وفي جانب يتزهد وينثر الحكم مع التفنن في المراثى، وتشيع في أساليبه سهولة

وليونة مفرطة. وكان يعاصره مسلم بن الوليد، وهو أيضاً ينتظم في عداد الموالي، وقد نشأ بالكوفة ثم انتقل إلى البصرة، وأكب على الشعر القديم وشعر بشار خاصة، حتى إذا لمع اسمه بين الشعراء المجيدين رحل إلى بغداد فمدح الرشيد وقواد الدولة ووزراءها وعمالها وولاه بأخرة الفضل بن سهل وزير المأمون بريد جرجان فظل بها حتى وفاته. واشتهر بتجويده لشعره والتدقيق في معانيه والعناية برصانة اللفظ وجزالته ونصاعته والإكثار من ألوان البديع. وأبو تمام الكطائي خاتمة هؤلاء الأعلام، وقد ولد بجاسم، وهى قرينة من قرى دمشق، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، فرحل إلى حمص، ثم إلى الفسطاط، وعاد إلى الشام وتردد بينها وبين الرقة والموصل، ثم هبط بغداد، ورحل عنها إلى خراسان، ثم عاد إليها، وتحول عنها مع المعتصم إلى "سر من رأى" ولزم بابه وأبواب وزرائه وكبار رجال الدولة، وظل وثيق الصلة بابنه الواثق ووزيره ابن الزيات وكاتبه الحسن بن وهب، وولاه الأخير بريد الموصل وسرعان ما وافته منيته. وشعره يفيض بثقافات عصره العربية والأجنبية وخاصة الثقافة الفلسفية والكلامية، واشتهر بأنه صاحب مذهب جديد، يقوم على التدقيق في المعاني والأخيلة والتعمق فيهما تعمقاً قد يفضي إلى الغموض، كما يقوم على استخدام ألوان البديع، حتى لا يكاد يخلو منها بيت من أبياته، بل حتى لتتوهج فيها توهجاً.

وكثر حينئذ شعراء السياسة والمديح والهجاء، فكان هناك شعراء الدعوة العباسية الذين ينافحون عن العباسيين زاعمين أنهم أصحاب الخلافة الشرعيون، ومن أشهرهم أبو دلامة نديم السفاح وغيره من الخلفاء، ومروان بن أبي حفصة وسلم الخاسر اللذان وجها شعرهما نحو الدفاع عن حق العباسيين في الخلافة وإنكار حق العلويين فيها والرد عليهم رداً عنيفاً. وكان شعراء الشيعة يدافعون بدورهم عن حق العلويين في الخلافة، يجهرون بذلك كلما سنحت لهم الفرصة ويخفونه كلما أشفقوا على أنفسهم من العباسيين، ومن أشهرهم السيد الحميري وكان كيسانى العقيدة لا يرى بأساً في مديح الخلفاء العباسيين، كما كان لا يخفى حبه للعلويين وأكثر من تغنيه بمناقب علي بن أبي طالب وذم قاتلي الحسين وثلبهم. ومثله منصور النمرى الشيعى الإمامى، وكان يمدح العباسيين ويأخذ جوائزهم ويتفجع على قتلى آل البيت وحقوقهم المهذرة في الخلافة ومثلها دعل، وكان يعلن تشيعه إعلاناً صريحاً، وتشكك أبو العلاء المعرى في صدقه وقال إنه كان يريد التكسب بإعلان تشيعه. وكان ديك الجن مخلصاً في تشيعه، غير أن ما أثر من شعره الشيعى قليل. وكان البرامكة بحوراً فياضة، فنظم الشعراء فيهم كثيراً من المدائح، وفي مقدمتهم أبان بن عبد الحميد اللاحقى مترجم كليله ودمنة شعراص، وأشجع بن عمرو السلمى، وله قصائد طنانة فيهم وفي انتصارات الرشيد على نفقور إمبراطور بيزنطة. وكان

كثير من الوزراء والقواد والولاة يجزلون العطاء للشعراء، فدبجوا مدائح كثيرة فيهم، على نحو ما يلقانا عند أبي الشيص شاعر عقبة بن جعفر الخزاعي وإلى الرقة بالموصل، وعبد الله بن أيوب التيمي شاعر يزيد بن يزيد قائد الرشيد، وعلى بن جبلة شاعر أبي دلف العجلي قائد المأمون، والخريكي شاعر عثمان بن خزيم المري وإلى أرمينية. وبرع في الهجاء شعراء كثيرون. من أمثال أبي عيينة المهلبى وكان يكسر في هجائه من الإقذاع الشديد، وعلى شاكلته عبد الصمد بن المعذل وكان هجاءً شكساً حديد اللسان.

وتكاثر شعراء الغزل بنوعيه النقي العفيف والمادى الصريح، وكان النوع الصانى أكثر شيوعاً لكثرة الجوارى والإماء، وخير من يصور النوع الأول العباس بن الأحنف الذي عاش يتغنى بالغزل العذرى الطاهر. أما النوع الثانى فخير من يصوره ربعة الرقى وغزله يسيل عذوبة. وكان شعراء المجون والزندقة كثيرين كثرة مفرطة لما شاع من فساد الأخلاق وكثرة النحل والمقاتلات والمذاهب الدينية والفلسفية ومن أشهرهم حماد عجرد، وكان يخلط مجونه بزندقة أشربتها روحه. ومنهم مطيع ابن إلياس وهو من أئكر الشعراء مجاهرة بالفسق والعصيان. ومنهم صالح بن عبد القدوس ولم يكن ماجناً، ولكنه كان زنديقاً كبيراً، إذ كان يعتنق عقيدة الثنوية المانوية مجاهراً بها، ومجادلاً مناظراً إلى أن أمر الرشيد بضرب عنقه، وجهور شعره أمثال وحكم. وكان غير شاعر يأخذ نفسه بحياة زاهدة ناسكة، على نحو ما نجد عند عبد الله بن المبارك ودعوته إلى الجهاد في سبيل الله وإلى التقوى واجتناب الآثام، وعند محمد بن كناسة الكوفى وتغنيه طويلاً برفض الدنيا ومتاعها الزائل، وعند محمود الوراق ودعوته إلى طاعة الله والرضا بقضائه والتوكل عليه والقناعة بكفاف العيش مع التفكير الدائم في الموت والفناء. وشارك المعتزلة في الشعر وفنونه، وكان منهم من ينظم في نفس الأغراض التي ينظم فيها الشعراء من حوله مثل العتابى الذي يروع قارئه بمعانيه الطريقة، ومثل النظام الذي يصبغ أشعاره في الغزل وغير الغزل بصبغة كلامية واضحة. ومنهم من كان ينظم في حوار أهل الملل والنحل مثل بشر بن المعتمر وكان يكثر من الحديث عن عجائب الله في خلقه. وصور نفر من الشعراء في أشعارهم النزعات الشعبية صادرة عن روح العامة وأحاسيسها، وخير من يمثلهم أبو الشمقمق وكان يستخدم في شعره أحياناً ألفاظ العامة، مجسماً فقره وبؤسه ومسغبته وأسماؤه البالية، وكثيراً ما يعرض ذلك في صورة فكهة.

وتطور النثر في هذا العصر وتنوع وكثرت قفونونه بما ملأ أوانيه اللفظية من الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وما استوعبه من صنوف العلوم وذخائر الفلسفة، وقد انبرى المتكلمون معتزلة

وغير معتزلة يبحثون في الأسس التي تقوم عليها براعة القول وبلاغته، واقتبسوا كثيراً مما سجلته الأمم القديمة من أصول البايين. وعنى كتاب الدواوين هم الآخرون بفصاحة الكلام وبلاغة القول، مما جعلهم يتحولون بدواوينهم إلى ما يشبه مدارس بيانية كبيرة، وحقاً ضعف شأن الخطابة السياسية والحفلية، غير أن الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ووعاظ وقصص وقصاص ازدهرت ازدهاراً عظيماً، كما ازدهرت المناظرات وخاصة في بيئة المعتزلة إذ كانوا يكثرون من حوار زعماء الفرق والنحل في المساجد ومجالس البرامكة ومجالس المأمون مثيرين ما لا يحصى من دقائق المعاني وخفيات الأدلة، وبلغ من إتقانهم للجدل وقدرتهم على الإقناع وفغهام الخصوم أن نفذوا كثيراً - بقصد إظهار المهارة الجدلية - إلى تقييح الأشياء المستحسنة وتحسين الأشياء المستقبحة، مما هباً لظهور كتب المحاسن والمساوى. واتسع نقل الآداب الفارسية وكل ما اتصل بها من عهود ملوك الفرس ووزرائهم ورسائلهم إلى العمال ووصاياهم وتوقعاتهم، وكان لذلك أثر بعيد فيما كان يصدر عن الخلفاء والوزراء ويدبجه الكتاب من رسائل وعهود ووصايا وتوقعات. وكان الكتاب يحرصون في هذا النثر اديواني الرسمي على بلاغة القول والتفنن في الأفكار والنمغانى، ويلقانا في عصر كل خليفة كتاب ذاع صيته موطكات شهرتهم كل مطار. وازدهرت حينئذ الرسائل الإخوانية، إذ تناول كثير من الكتاب الأغراض التي كان ينظم فيها الشعراء من ثناء وشكر وهجاء وذم وعتاب واعتذار واستعطاف وتنهئة وتعزية، وأخذوا يجربون فيها رسائل شخصية مفتنين في أساليبها البيانية وما يصورون به امن عواطفهم وأهوائهم. ونفذ نفر منهم إلى كتابة رسائل أدبية طريفة تتناول النفس الإنسانية وعواطفها وسلوكها وحياتها العاملة وما يهديها سبيل الرشاد. وأخذ بعض الكتاب البارعين يحاكون ما نقله ابن المقفع وغيره إلى العربية من القصص الحيواني والرسائل السياسية الفارسية.

وأعلام الكتاب في العصر ابن المقفع وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وابن الزيات. أما ابن المقفع فكان فارسى الأصل ونشأ بالبصرة في ولاء آل الأهم، وهم بيت فصاحة وخطابة، فحذق العربية، وعمل في دواوين العراق آخر زمن بني أمية، ثم في دواوين سليمان بن على وعيسى بن على عمى المنصور، وكان لا يزال مجوسياً فأسلم على يد الأخير. وأغرى به المنصور سفيان بن معاوية والى البصرة، فقتله. وقد اشتهر بترجمته عن لغته بعض كتب الأدب الفارسي وكتاب كليلة ودمنة الهندي الأصل وبعض منطق أرسططاليس. وكان آية في البلاغة وحسن الأداء وفصاحته، على نحو ما يتضح في الأدب الصغير والأدب الكبير وكتاب اليتيمة ورسالة الصحابة، وهى جميعاً تفيض بالوصايا السياسية والاجتماعية والخلقية. وتعد ترجمته لكليلة ودمنة من روائعه الفذة. وله رسائل

إخوانية وأدبية بديعة. وكان سهل بن هرون مثله فارسي الأصل ن وعكف على الآداب الأجنبية، وشارك في الترجمة عن لغته الأصلية، ويقال إنه كانت فيه نزعة شعوبية، وكان فيه ميل إلى التندر، ووظفه الرشيد بخزانة الحكمة التي أنشأها، وقربه المأمون وجعله خازناً لبعض أقسامها. وكان من أفراد عصره في البلاغة والبيان وصحة المنطق، وعنى بتأليف قصص حيوانى على شاكلة كليله ودمنة، وهو يملؤه بالتربية السياسية والاجتماعية والحكم والأمثال على شاكلة كتابه "النمر والثعلب". ومن رسائله الأدبية الطريفة رسالته في الاحتجاج للبخل. ورسالته الأخرى في نصرة الزجاج على الذهب. وله رسائل شخصية بديعة. ومن أهم ما يميزه عنايته بدقة معانيه وتوفير الازدواج والجمال الصوتى لألفاظه وأساليبه. أما أحمد بن يوسف فكان من بيت كتابة، إذ كان أبوه يوسف بن صبيح ممن ذاع صيتهم في دواوين القرن الثانى، وقد عنى بتأديب ابنه وإعداده للعمل في الدواوين. وسرعان ما استخلصه الفضل بن سهل للمأمون، فجعله على ديوان الرسائل، ثم اختاره وزيراً له، وظل على وزارته حتى توفى. وكان واحد زمانه في الكتابة الديوانية، ومن أروع رساله السياسية رسالة الخميس التي كتبها في تأييد الدعوة العباسية، وثقافته الكلامية واضحة في تحميدها إذ تحول به إلى ما يشبه مبحثاً كلامياً في الدلالة على وجود الله ووحدانيته وحدوث الخلق وفناء العالم. وله رسائل شخصية يتضح فيها ما يتضح في رسائله الديوانية من تأنق التعبير. حتى ليمكن أن يقال إنه هو الذي أعد في قوة لأن يشيع في النثر الديوانى الرسمى أسلوب الازدواج والترادف الصوتى وما يجرى فيه أحياناً من السجع. وكان عمرو بن مسعدة مثله من بيت كتابة، إذ كان أبوه مسعدة يلى ديوان الرسائل للمنصور، وقد أحكم تأديبه وثقيفه، وتلقفه جعفر بن يحيى البرمكي، فاتخذته كاتباً للتوقيع بين يديه، وغرس فيه شغفه بالإيجاز والتأنق في التعبير، حتى أصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من جوهر نفسه. والتحق بدواوين المأمون، حتى إذارفع أحمدج بن يوسف إلى الوزارة أقامه مقامه على ديوان الرسائل وظل يليه إلى وفاته. وتتميز كتابته الديوانية بالاقتصاد المسرف حتى كان يضرب به المثل في الإيجاز، وهو يضيف إليه ميلاً شديداً إلى التأنق والتنميق. وكان ابن الزيات من بيت تجارة ن غير أنه نشأ محباً للأدب فأقبل على التزود بعلوم الغلة وكنوز الآداب الأجنبية والعربية، حتيرع في الشعر والكتابة جميعاً، وسرعان ما التحق بدواوين المامون، ومازال نجمه في صعود، حتى استوزره المعتصم، وظل وزيراً في عهد ابنيه الواثق والمتوكل إلى أن نكبه الأخير نكبته المشهورة. وكان لسناً بليغاً طص ولم يكن يصدر في بلاغته ولسنه عن تكلف، وإنما كان يصدر عن طبع مهذب دون قصد إلى التأنق المسرف أو التنميق المفرط، وكان يحرص دائماً على فصاحة اللفظ وحسن الأداء مع الجزالة والنصاعة.

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- في مكتبة الدراسات الأدبية
* الفن ومذاهبه في الشعر العربي
الطبعة الثالثة عشرة ٥٢٨ صفحة
- * الفن ومذاهبه في النثر العربي
الطبعة الثانية عشرة ٤٠٠ صفحة
- * التطور والتجديد في الشعر الأموي
الطبعة العاشرة، ٣٤٠ صفحة
- * دراسات في الشعر العربي المعاصر.
الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة
- * شوقي شاعر العصر الحديث
الطبعة الثالثة عشرة، ٢٨٨ صفحة
- * الأدب العربي المعاصر في مصر
الطبعة الثانية عشرة ٣١٢ صفحة
- * البارودي رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة، ٢٣٢ صفحة
- * الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية
الطبعة الخامسة، ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبي:
طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره
الطبعة الثامنة، ٢٨٠ صفحة.
- * الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور.
الطبعة الثانية، ٢٥٦ صفحة
- * في التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى، ٢٧٦ صفحة
- * في الشعر والفكاهة في مصر
الطبعة الأولى ١٢٨ صفحة
- في الدراسات النقدية
في النقد الأدبي
الطبعة الثامنة ٢٥٢ صفحة
- فصول في الشعر ونقده
الطبعة الثالثة ٣٦٨
- في الأدب والنقد
الطبعة الأولى ١٥٢ صفحة

- في الدراسات القرآنية
الوجيز في تفسير القرآن الكريم
الطبعة الثانية ٢١١٢ صفحة
- * سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة
الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات
- عالمية الإسلام
الطبعة الأولى ١٢٠ صفحة
- الحضارة الإسلامية في القرآن والسنة
الطبعة الأولى ٣٣٤ صفحة
- معجزات القرآن
الطبعة الأولى ٢٦٠ صفحة
- في تاريخ الأدب العربي
* العصر الجاهلي
الطبعة الثالثة والعشرون ٤٣٦ صفحة
- * العصر الإسلامي
الطبعة العشرون ٤٩٦ صفحة
- * العصر العباسي الأول
الطبعة الخامسة عشر ٥٧٦ صفحة
- * العصر العباسي الثاني
الطبعة الثانية عشرة ٦٦٠ صفحة
- * عصر الدول والإمارات
الجزيرة العربية - العراق - إيران الطبعة
الرابعة ٦٨٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الشام الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة
- * عصر الدول والإمارات
(مصر) الطبعة الثالثة ٥٠٤ صفحة.
- * عصر الدول والإمارات
(الأندلس) الطبعة الثالثة، ٥٥٢ صفحة
- * عصر الدول والإمارات.
(ليبيا - تونس - صقلية)
الطبعة الأولى ٤٤٨ صفحة.
- * عصر الدول والإمارات
الجزائر - المغرب الأقصى - موزمبيق -
السودان
الطبعة الأولى ٧٠٨ صفحة

* النقد

- الطبعة الخامسة، ١١٢ صفحة

في الدراسات البلاغية واللغوية
البلاغة: تطور وتاريخ

الترجمة الشخصية	الطبعة الحادية عشر ٣٨٠ صفحة
الطبعة الرابعة، ١٢٨ صفحة.	المدارس النحوية
الرحلات	الطبعة الثامنة ٣٧٦ صفحة
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة	تجديد النحو
* في التراث المحقق	الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة
	تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده
* المغرب في حلي المغرب لابن سعيد	الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحات
الجزء الأول- الطبعة الرابعة، ٤٦٨ صفحة	تيسيرات لغوية
الجزء الثاني- الطبعة الرابعة، ٥٧٢ صفحة	الطبعة الثانية ٢٠٠ صفحة
كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد	تحريفات العامية للفصحى
الطبعة الثالثة، ٧٨٨ صفحة	الطبعة الأولى ٢٠٣ صفحة
* كتاب الرد على النحاة	في مجموعة نوابغ الفكر العربي
الطبعة الثالثة، ١٥٢ صفحة	ابن زيدون
* الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر.	الطبعة الثانية عشرة ١٢٤ صفحة
الطبعة الثالثة، ٣٥٦ صفحة	في مجموعة فنون الأدب العربي
السيرة النبوية	* الرثاء
* محمد خاتم المرسلين	الطبعة الرابعة، ١١٢ صفحة
الطبعة الأولى ٤٠٨ صفحة	* المقامة
	الطبعة السابعة، ١٠٦ صفحات

في سلسلة "اقرأ"	
* مع العقاد الطبعة الخامسة	* معي (١) الطبعة الثانية
* البطولة في الشعر العربي الطبعة الثانية	* معي (٢) الطبعة الأولى
* الفكاهة في مصر الطبعة الثالثة	القسم في القرآن الكريم الطبعة الأولى